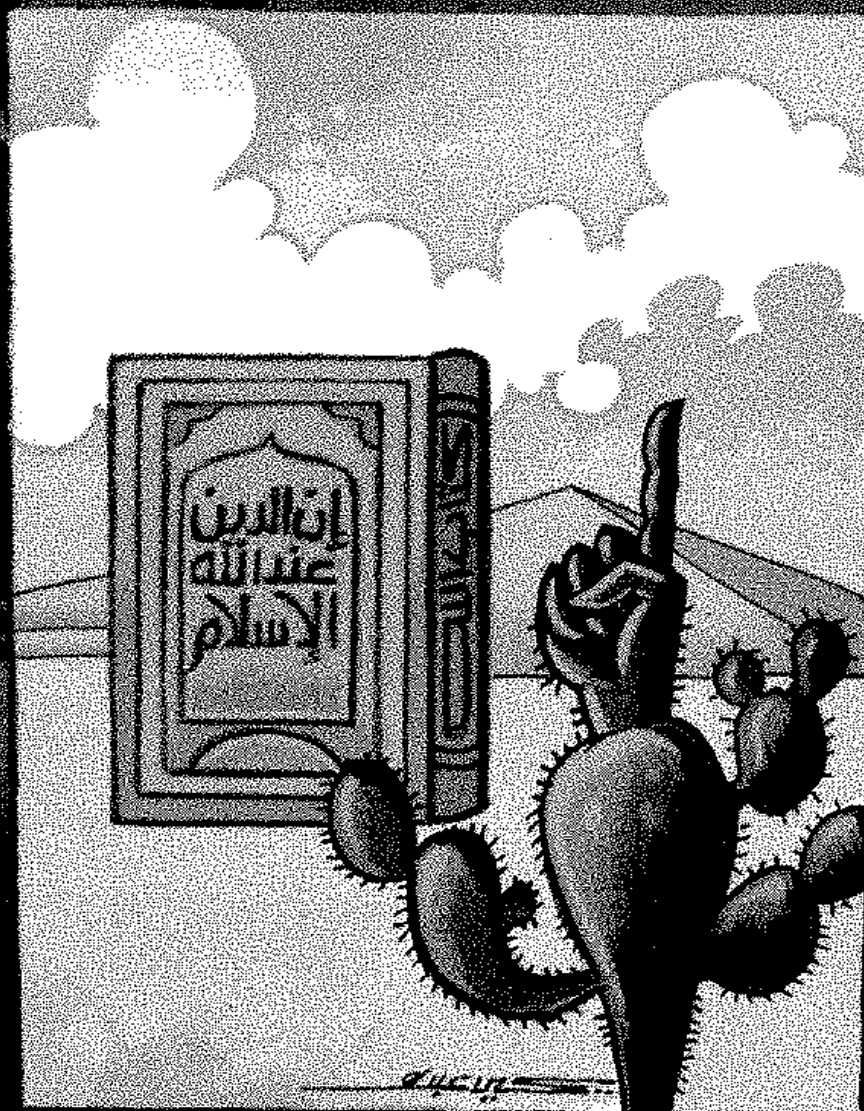
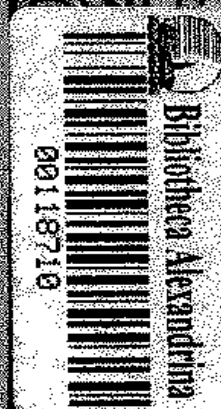


تاريخ الدعوة

دكتور محمد إبراهيم الجيوشي



دار العلم والثقافة



نَارِجُ الدَّعْوَةِ

الناشر

دار العلم والثقافة

٦١ شارع الشيخ محمد النادى المنطقة السادسة مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٨٢٥١ - ٢٧٥٨٢٥٢ فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ ص. ب: ٧٦

تجهيزات فنية: آر - تك ت: ٣١٤٣٦٣٢ - العنوان: ٤ ش بتي كعب - متفرع من السودان

طبع: آسون ت: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧ - العنوان: ٤ فيروز - متفرع من إسماعيل أباطة

رقم الإيداع: ١٩٩٩/٥١٩١ الترميم الدولى: 5 - 13 - 5829 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة - الطبعة الأولى: محرم ١٤٢٠ هـ - أبريل ١٩٩٩ م

نائج الدعوة

الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي
السيد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

الناشر

دار العلم والثقافة



مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه سيدنا محمد وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، الذين اصطفاهم الله واجتباهم، وأمرنا بالافتداء بهم فى كتابه الكريم فقال - عز من قائل -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْئِدَةً﴾^(١) وجعل فى سيرتهم وقصصهم عبرة لأولى الألباب، فقال - سبحانه -: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) واتبعا لهذا التوجيه الإلهى الكريم أخذاً للدرس والعبرة من سيرتهم - عليهم الصلاة والسلام - فإننا نبداً - بعون الله وتوفيقه - فى الوقوف مع بعض مراحل دعواتهم على ضوء ما جاء منها فى كتاب الله الكريم، نتعرف على المناهج التى اتبعوها، والأساليب التى أخذوا بها، ونستنتج الدروس والعبر من مواقفهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - . . .

أولو العزم،

ولما كان الإمام بدعواتهم جميعاً يحتاج إلى زمن أوسع قد يستغرق سنوات فإننا سنقتصر فى تناولنا لدعواتهم فى هذا العرض السريع على أولى العزم من الرسل، وهم: أبو البشر الثانى نوح - عليه السلام - وأبو الأنبياء خليل الله إبراهيم - عليه السلام - وكليم الله موسى - عليه السلام - وكلمة الله عيسى - عليه السلام وخاتمهم محمد ﷺ وذلك لأنهم كانوا أكثر الأنبياء صبراً وجهداً، وأشدهم عزماً،

(١) الأنعام، من الآية: ٩٠

(٢) يوسف، الآية: ١١١

وأسماءهم توضحية، وأكثرهم عملا دائبا في الحرص على هداية أقوامهم، وضرب
الأمثلة لمن يأتى بعدهم وينهج نهجهم.

تمهيد،

وتحديد أولى العزم من الرسل مأخوذ من قول الله - تعالى - فى سورة
الاحزاب: ﴿وَلِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١) ومن قوله - عز شأنه - فى سورة الشورى:
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٢).

دين الله واحد،

ودين الله واحد، جاء به الانبياء جميعا، ودعوا إلى التوحيد وإلى عبادة الله
وحده، ودينهم هو الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٤).

وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض الانبياء الذين ينسبون أنفسهم إلى
الإسلام، أو يصفهم القرآن بأنهم مسلمون، فيقول عن إبراهيم - عليه
السلام -: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾^(٥)، ويحكى القرآن أن كلا من إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - قد
وصيا أبناءهما بأن يكون الإسلام دينهم الذى يلقون الله عليه، يقول - سبحانه -:

(١) الاحزاب، الآية: ٧

(٢) الشورى، الآية: ١٣

(٣) آل عمران، من الآية: ١٩

(٤) آل عمران، من الآية: ٨٥

(٥) آل عمران، الآية: ٦٧

﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَسَبَّحْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَتَعَقَّبْتُ لَيْلِيَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(١)، وكذلك كانت وصية يعقوب الأخيرة لبيه حين حضرته الوفاة، يقول الله - تعالى -: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَا بَنِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهُمَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢).

وكذلك كانت دعوة يوسف - عليه السلام - أن يتوفاه الله على الإسلام؛ حيث يقول الله على لسانه: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾^(٣) ومن قبل كان نوح - عليه السلام - قد أعلنها صريحة لقومه بعد أن عرضوا عن دعوته، فقال: ﴿ .. إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٤) وموسى - عليه السلام - يستحث قومه على التوكل على الله إن كانوا مسلمين، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾^(٥).

وكذلك كانت دعوة سليمان - عليه السلام - إلى الإسلام حين وجه رسالته إلى ملكة سبا حين قال: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّي مُسْلِمِينَ ﴾^(٦)، وكذلك كانت إجابة ملكة سبا أنها أسلمت لله رب العالمين: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

(١) البقرة، الآية: ١٣٢

(٢) البقرة، الآية: ١٣٣

(٣) يوسف، الآية: ١٠١

(٤) يونس، من الآية: ٧٢

(٥) يونس، الآية: ٨٤

(٦) النمل، الآية: ٣١

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وكانت دعوة عيسى - عليه السلام - دعوة إلى الإسلام، وإقرار الحوارين بأنهم مسلمون، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

الحكمة من تعدد الرسل:

إذا كان دين الله واحداً وهو الإسلام فلم تعددت الرسالات والرسول؟ وفي الإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن البشرية في أول أمرها كانت محدودة الثقافة، قليلة التجربة، فكانت الحكمة تقتضي أن يقدم لها ما يتناسب مع مقدرتها الفكرية وتجربتها المحدودة، وتتابع الرسل إلى أقوامهم يزدون من ثقافتهم، ويوسعون من دائرة تجاربهم بما يلقونه إليهم من علم الله الذي أفاضه عليهم، إلى أن بلغت الإنسانية رشدها، وأصبحت قادرة على استيعاب الرسالة الكاملة جاءت رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ لتكون عامة وشاملة، وباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، واقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الرسالة الخاتمة مهمة على الرسالات السابقة وناسخة لها، ومصدقة لها، فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّا يَدُورِينَ أَلَمْ يَكْتُبْ وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ فَآخِذْكُمْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أَنزَلْنَا إِلَهُهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٣).

واقتضت حكمة الله - سبحانه - أن يتولى حفظ كتابه ورسالاته الخاتمة؛ لتكون بمنجاة من التحريف والتبديل والزيادة والنقص، وذلك في قوله - سبحانه - : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ﴾ (٤) أما الكتب السابقة فقد وكل حفظها إلى البشر.

(١) النمل، الآية: ٤٤

(٢) المائدة، الآية: ١١٤

(٣) المائدة، الآية: ٤٨

(٤) الحجر، الآية: ٩

والبشر يعترهم النسيان والضعف والخطأ، فما وكل إليهم حفظه عرضة لذلك، أما ما وكل إلى الله - تعالى - فهو مبرأ من ذلك.

وفى إسناده حفظ الكتب السابقة إلى البشر يقول الله - تعالى - : ﴿...يَمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ (١).

من أجل ذلك كان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في العالم الذي سلم من التحريف والزيادة والنقص.

وإذا كان الله - سبحانه - قد أرسل أنبياءه ورسله على مدى العصور ليعلموا الناس ويهدوهم إلى طريق الرشاد، ولئلا يكون لهم حجة يحتجون بها إذا لم يهتدوا، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ ذِكْرًا ﴿١٧٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٧٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٢) فإننا فى حاجة إلى أن نقف مع دعوات هؤلاء الأنبياء والرسل، نأخذ منها الدرس والعبرة، وسيقتصر تناولنا على دعوات أولى العزم كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

ولكن ما عرضناه من أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعا يدفعنا إلى أن نتجه بالبحث وجهة أخرى، يدفعنا إليها تساؤل ينشأ فى النفوس خلاصته: التعرف على نشأة العقيدة عند البشر، وعلى الرغم من أن الإجابة عن هذا التساؤل واضحة جلية من وجهة النظر الإسلامية؛ لأن الله لما خلق آدم أبأ البشر أوحى إليه وعلمه، إلا أن الباحثين فى نشأة العقائد من الغربيين لهم آراء أخرى قائمة على الخدس والتخمين، وليس لها أصل قائم على الدليل والحجة، وعلى الرغم من رفضنا لهذا الاتجاه عند الباحثين الغربيين فإننا سنقدم هذه الآراء ونعقب عليها

(١) المائدة، من الآية: ٤٤

(٢) النساء، الآيات: ١٦٣ - ١٦٥

بالنقد والكشف عن خطئها ومخالفتها لما جاء به الوحي المنزل من عند الله رب العالمين، فالحق هو الذي جاء به الإسلام من أن الدين فطرة فطر الله الناس عليها، كما قال - سبحانه - ﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) وفيما يلي عرض مفصل لنشأة العقيدة عند البشر.

وقبل أن نتقل إلى البحث في نشأة العقيدة، فإننا نود أن نشير بوضوح إلى أن دعوة الأنبياء جميعا كانت دعوة إلى التسامح والسلام والمحبة، وإلى احترام حقوق الإنسان وحرمة دمائه وماله وعرضه؛ التزاما بقول الله - سبحانه - ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ فِي أَحْسَنِ ﴾ (٢).

فالذين يسمحون لأنفسهم أن يروجوا الأمنين ويسفكوا دماء الأبرياء، ويعتدوا على ممتلكاتهم يخالفون دعوة الله، ويحاربون الله ورسوله؛ لأنهم خالفوا توجيهات القرآن الكريم، وخرجوا على دعوة النبي ﷺ حينما قال في خطبة الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَصْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا».

وقد أساءوا إلى الدين بما ادعوه زورا وبهتانا أنهم قاموا باسم الدين، والدين منهم براء؛ فليس في الإسلام عنف، وليس في الإسلام إزهاق للأرواح، وليس في الإسلام ترويع للأمنين، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (٣).

والذين يقدمون على العدوان على الأنفس جزاؤهم جهنم، وقد توعدهم الله أشد الوعيد في قوله: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ (٤).

(١) الروم، الآية: ٣٠

(٢) النحل، من الآية: ١٢٥

(٣) سورة الطلاق، من الآية: ١

(٤) النساء، من الآية: ٩٣

نشأة العقيدة الدينية

عند البشر

تعريف كلمة دين،

قد يكون من المفيد أن نتعرف على المعانى التى تفيدها كلمة (دين) فى اللغة العربية، ثم نتلمس العلاقة التى تربط بين هذه المعانى المختلفة، وأسباب الاختلاف فى دلالتها على معان متعددة، ومن تتبع كلمة (دين) فى كتب اللغة نرى أنها تستعمل فى معنى السلطان والغلبة والملك والقهر والقضاء والطاعة والعبادة والمذهب والشرعة والملة والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد.

وقد جاء فى اللسان: الدين مفرد، جمعه: أديان، يقال: دان بكذا ديانة وتدين به، فهو دينٌ ومتدين، ودائه ديناً، أى: أذله واستعبده.

والدين: ما يتدين به الرجل، والدين: السلطان والورع والطاعة^(١).

وفى القاموس: الدين: الجزء والعادة والعبادة والطاعة والذل والذناء والحساب والقهر والغلبة والسلطان والاستعلاء والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد، واسم لجميع ما يتعبد الله به، والملة والورع^(٢).

وقد أشار الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أسباب اختلاف المعانى التى جاءت لها الكلمة، ويرجع ذلك إلى الفعل الذى ترجع إليه الكلمة، فإما أن يكون متعدياً بنفسه، أو متعدياً باللام، أو بالياء.

(١) لسان العرب، ج ١٧ ص ٢٨

(٢) القاموس المحيط، ج ٤ ص ٢٢٥

فإن كان الفعل متعدياً قلنا: دانه ديناً، وكان المقصود بذلك أنه ملكه وحكمه
وساسه وقهره ودبره وحاسبه وقضى في شأنه وجازاه وكافأه، فتكون كلمة (دين)
حيث تدور على معنى الملك والتصرف بما من شأنه السياسة والتدبير والحكم
والقهر.

وإذا كان الفعل متعدياً باللام بأن قلنا: دان له، فإنه يراد بذلك أنه أطاعه
وخضع له، فالدين هنا يعنى الخضوع والطاعة والعبادة والورع.

وإذا كان الفعل متعدياً بالياء بأن قلنا: دان به، فإن معناه أنه اتخذ ديناً
ومذهباً، فالدين هو المذهب والطريق.

وخلاصة ذلك: أن الفعل (دان) إذا كان متعدياً بنفسه كان المعنى الأصلي
للدين هو الملك والحكم والقهر والتدبير.

وإن كان الفعل متعدياً باللام كأن نقول: دان له، كان معنى الدين: الطاعة
والخضوع والعبادة والورع.

وإن كان الفعل متعدياً بالياء كأن نقول: دان به، فهذا يعنى أنه اتخذ ديناً
ومذهباً وطريقاً.

والدين بمعنى التوجه بالعبادة إلى الله، والطاعة لأوامره، والخضوع لإرادته،
واتباع الطريق الذى أمر باتباعه يجمع معانى الفعل (دان) فى حالاته الثلاث.

وقد جرى على السنة الباحثين فى علم الأديان اصطلاحات: مثل تاريخ
الأديان، وفلسفة الأديان، وتاريخ الأديان المقارن، وعلم الأديان.

فهل هذه مسميات لشيء واحد، أم أن لكل منها معنى مغايراً لمعانى
الاصطلاحات الأخرى؟ وفيما يلى تحديد لكل منها:

فتاريخ الأديان المقارن: يدرس خصائص ومميزات الأديان.

وفلسفة الأديان: تبحث فى العلاقات بين الأسس التى تستند إليها الأديان
المختلفة، وفى الغايات التى تهدف إليها، ويدخل فى مباحثها علم ما وراء
الطبيعة، وعلم الكلام، وعلم التصوف.

وتاريخ الأديان: يبحث عن نشأة المعتقدات الدينية وتطورها، ومرتكزاتها لدى الشعوب البدائية المختلفة، والشعوب المتمدينة، فالغرض من دراسة تاريخ الأديان هو معرفتها.

وعلم الأديان: يبحث عن منشأ الأديان وتطورها، وفي الأسس التي تركز إليها الأديان المختلفة، وفي أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينها.

وبعبارة أخرى: يناقش تاريخ الأديان ويوضح فلسفتها ويوازن بينها^(١).

تصنيف الأديان: هناك تصنيفات متعددة للأديان، فهناك من يقسمها إلى:

أديان ملهمة أو موحى بها: مثل الإسلام واليهودية.

وأديان مطلقة أو كاملة: وأدخلوا فيها المسيحية.

وهناك من قسمها إلى:

أديان أخلاقية: وهي أديان البدائيين.

وإلى أديان منقذة: وأدخل فيها البوذية والمسيحية.

وهناك من قسمها إلى:

أديان عالمية مثل: الإسلام والمسيحية.

وأديان قومية مثل: اليهودية والأديان البدائية^(٢).

فطرة الله:

فطر الله الإنسان على التدين، وركز في وجدانه الإيمان بأن هناك خالقاً لهذا الكون مدبراً له ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَىٰ فِطْرَتِهِ لِيُخْلِقَ إِلَهُهُ ذَٰلِكَ إِلَهُكَ الَّذِي يُقِيمُ ٱلْقِيَمَ﴾^(٣).

فالدين صنو الإنسان على هذه الأرض.

وقد أخبرنا الله سبحانه في كتابه أنه أخذ العهد على بني آدم جميعاً، وهم في

(١) الأديان، ص ١٨

(٢) الأديان، ص ٢٦، ٢٧

(٣) سورة الروم، من الآية: ٣٠

(عالم الذر)، وأشهدهم على أنفسهم إقراراً بربوبيته، فقال - عز من قائل -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝﴾ (١).

ولم يترك الله الخلق بدون هداة يأخذون بأيديهم، ويبصرونهم طريق الرشاد، بل تعهدهم بالأنبياء والرسل حتى يحولوا بينهم وبين البعد عن الطريق القويم كما قال - سبحانه -: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝﴾ (٢) وزود آدم أبا البشر منذ البداية بنور وحيه، وحباه من علمه ما ظهر به فضله على الملائكة كما نقص ذلك سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٢ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢٣ قَالَ يَتْلُو آتِیْنَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝﴾ (٣).

غير أن الإنسان دائماً ينسى، وينساق وراء بعض المظاهر التي تستولى على لبه، أو تثير دهشته، فيحمل لها نوعاً من التقدير لا يلبث أن يتحول مع الزمن إلى عبادة وتقديس، فيؤدي ذلك إلى انحراف في التعبير عن الفطرة المركوزة في كيانه، وهكذا عرفت البشرية كثيراً من ألوان هذا الانحراف، فقدست الشمس والكواكب والنار، وبعض الحيوانات، والأنهار والأشجار التي ظنت أن لها تأثيراً في جلب النفع إليها، أو دفع الضرر عنها، ومن أجل ذلك تعددت معبودات البشر، واتخذوا عدداً من الآلهة جعلتهم يغفلون عن التوجه بالعبادة للإله الحق،

(١) سورة الأعراف: ١٧٢

(٢) سورة فاطر: ٢٤

(٣) سورة البقرة: ٣٠ - ٣٣

وكلما جاء رسول يقوم من انحرافهم، لا يلبثون أن يعودوا إلى الانحراف في تصور الإله بمرور الزمن، غير أن الإيمان بالإله الخالق كامن في الطبيعة البشرية ملازم لها منذ أن خلقها الله، وليس من باب الصدف أن نجد البشر جميعاً - على بعد أماكنهم واختلاف مستوياتهم الفكرية - يؤمنون بفكرة الإله، وإن كان إيماناً يشوبه الخطأ في التصور الصحيح للإله الحق.

ومن الممكن أن توجد شعوب ليس لها آداب، ولا علوم، ولا فلسفات، ولكنه ليس ممكناً أن توجد جماعات بدون دين؛ لأن التدين غريزة وجدت مع الإنسان منذ البداية.

وقد قال هنري برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وآداب وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير دين».

ويقول الأستاذ العقاد في كتابه (الله): «ففى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام...» إلى أن يقول:

«حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان. وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن، ولا يستقر فى وسط هذه العوالم بغير إيمان، وهو قد وجد وسط هذه العوالم لامراء.

فإذا كان الإيمان هو الحالة التى يتطلبها منه وجوده، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين، ويدل على خلل فى الكيان، وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصيل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الإنسان من أقدم أرمئة التاريخ^(١).

وعلى الرغم من وضوح حقيقة ملازمة التدين للإنسان منذ البداية، فقد وجد فى القرن الثامن عشر الميلادى بين كتاب أوروبا من ينارع فى ثبوت هذه الحقيقة، وذهبوا إلى أن الديانات أمور استحدثت فى عصور لاحقة!!

وقد عرض الدكتور محمد عبد الله دراز لهذه الآراء فى كتابه (الدين) وناقشها ورد عليها، وأوضح أن كتاب القرن الثامن عشر إنما يرددون مقالات قديمة جرت على السنة السوفسطائيين القدماء الذين ادعوا أن الإنسان فى مبدأ أمره كان يعيش

(١) كتاب... الله... ص ٨، ٩ دار المعارف، الطبعة الثانية.

منطلقاً لا يخضع لقانون، ولا تحكمه قيم أخلاقية، ولم يكن يخضع إلا لقوة يخاف بطشها، ويحسب حسابها، وكانت الفوضى هي مظهر حياته، فلما سنت القوانين وشرعت عقوبات لمن يتخطى الحدود التي أباحت التصرف في دائرتها امتنع الناس عن الفوضى علناً خوفاً من العقاب، ولكنهم لم يكفوا عن مباشرة الجرائم المستترة مادامت يد القانون لم تمسك بهم، فأعمل بعض المفكرين أذهانهم ليجدوا وسيلة تحمل الناس على الكف عن ارتكاب الجرائم خفية مادام القانون لم يصل إليهم، وانتهى بهم التفكير إلى إقناع جماهير الناس أن في السماء قوة أولية أبدية ترى وتسمع وتهيمن على كل شيء، وهكذا - فيما يزعمون - نشأت فكرة الدين^(١).

ولاشك أن هذا التصور الذي نقله الدكتور دراز عن الباحثين الغربيين أمر مرفوض من ناحية النظرة الإسلامية التي تؤمن أن الدين فطرة في الإنسان كما أشارت إلى ذلك آيات القرآن الكريم.

وخلاصة ما نراه: أننا نرى أن الدين صنو الإنسان على هذه الأرض، وأنه وجد منذ وجد الإنسان الأول، وهو آدم أبو البشر الذي عرف التوحيد وعلمه بنيه، إلا أن تطاول الزمن جعل الإنسان يغفل عن التوحيد مأخوذاً ببعض المظاهر التي كان يخشى منها، ثم انتقل من الخشية إلى الاحترام، ثم انتقل إلى تقديسها وعبادتها ظناً منه أن لها قدرة على النفع والضرر.

وعلى ضوء ما تقدم نقرر الحقائق التالية:

(أ) التدين طبيعة في البشر خلقهم الله عليها وركزها في طبيعتهم.

(ب) أن الإنسان عرف الوحدانية والإله الواحد منذ البداية عن طريق وحى

الله لآدم - عليه السلام - الذي علمه بنيه من بعده وتوارثوه جيلاً عن جيل.

(ج) أن اتخاذ آلهة متعددة أمر طارئ على الأصل الذي هو الإيمان بالله

الواحد، وأن ذلك نشأ بتطاول الزمن وانبهار الإنسان ببعض المظاهر الكونية من حوله، تلك المظاهر التي ظن - خطأ - أنها قادرة على جلب نفع له أو إيقاع ضرر به.

(١) راجع كتاب (الدين) للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ٨٠ - ٨٢ الطبعة الثانية، نشر دار القلم بالقاهرة سنة ١٩٧١ م.

(د) أن الله - سبحانه وتعالى - تعهد البشر من وقت لآخر بإرسال رسله وأنبيائه - عليهم السلام - ليقوموا العقائد المنحرفة ويعيدوا الإنسانية إلى الطريق الصحيح والدين الحق، وصدق الله حين يقول:

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾^(١)
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾^(٢)

* * *

(١) سورة الشورى، من الآية: ١٣

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ١٥٣

رأى علماء الغرب فى نشأة الدين

على الرغم من وضوح نشأة الدين وكونه جزءاً من الفطرة الإنسانية، فإن الباحثين فى أصل الأديان ونشأتها من علماء الغرب يرون أن التدين عند الإنسان يرجع إلى أسباب أخرى نلخصها فيما يلى:

١ - يذهب كثير من الباحثين إلى أن (الأساطير هى أصل الدين) وبخاصة بين الهمج، ولعل السبب فى اعتناق كثير منهم لهذا رأى أنهم رأوا أن العقائد الهمجية قد امتزجت بالأساطير عند جميع القبائل البدائية، ولأن هذا الامتزاج قد حصل بالفعل، فإننا نرى الأستاذ العقاد فى رده هذا رأى يقول: «فلا يسهل من أجل هذا أن نرفض القول بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة، ولكن لا يسهل من جهة أخرى أن نطابق بين العقيدة والأسطورة فى كل شىء وفى كل خاصة؛ لأن العقيدة قد تحتوى الأسطورة، ولكن الأسطورة لا تحتويها، إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لا يشتمل عليها عنصر الأسطورة، وهى زيادة الإلزام الأخلاقى، والشعور الأدبى بالطاعة والولاء، والأمل فى المعونة والرحمة من جانب الرب المعبود»^(١).

٢ - رأى تايلور TYLOR:

ويذهب تايلور إلى أن (الإنسان البدائى كالطفل فى نظره للأشياء وتخيله لها فى صور الأحياء) فكما أن الطفل يتعامل مع الجملادات دائماً من حوله مضيفاً عليها صفة الحياة إما فى حالة الرضا، وإما فى حالة الغضب، فهى محبة إليه

(١) راجع كتاب (الله) للأستاذ العقاد، ص ٩، ١٠ وراجع أيضاً كتاب (الدين) للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ١٣٣ طبع دار القلم ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.

مقربة عنده فى حالة الرضا، وهى بغیضة إلیه بعيدة عنه فى حالة الغضب، فكذلك الإنسان الأول فى نظرتة إلی الأشياء من حوله، ولهذا كان تقديسه للنجوم والقمر والرياح، والسحب والينابيع، وما يعرض له من أحداث الطبيعة التى تسبب له سروراً أو حزناً، خوفاً أو أمناً، وقد تعامل معها جميعاً على أنها أحياء لها كل مميزات الأحياء من سمع وبصر وغذاء ومتاع، ولهذا كان إحساس الإنسان البدائى بها إحساس الرهبة والرغبة، ومن أجل ذلك شعر بحاجته إلی استجلاب رضاها بالصلاة والدعاء وتقديم القرابين.

٣- رأى سبنسر:

ويرى سبنسر أن الإيمان بحياة الأرباب ناشئ عن عبادة الأسلاف التى يراها أقدم العبادات، وكانت رؤية الأطياف فى النوم تجعله يظنها باقية ترجى وتخشى، وأنها تتقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم على قيد الحياة، وعلى الرغم من أن الأستاذ العقاد ينسب هذا الرأى إلی «سبنسر» فإن الدكتور دراز ينسبه إلی تيلور وأتباعه^(١).

ويرد الأستاذ العقاد على هذا الرأى فيقول: «ولكن يرد على القول بعبادة الأسلاف أنها لم تستغرق عبادات الأقدمين فى زمن من الأزمان، وأن النائم يرى أطياف الغرباء كما يرى أطياف الآباء، ويرى أطياف الأطفال الضعفاء، بل يرى أطياف السباع التى يخافها فى يقظته فلا يعبدوها؛ لأنه يخافها، وتتردد عليه أطيافها «بل يقتلها ويحول بينها وبين الطعام».

«ومهما يبلغ من قصور العقل عند الهمج، فهم لا يجهلون أن الروح الذى يحوم حولهم فى طلب الطعام والشراب يحتاج إليهم، ولا يستغنى عنهم، فإن شاءوا منعوا عنه القوت فأردوه، وإن شاءوا والوه بالقوت فأبقوه، ولو لم يكن محتاجاً إليهم لما حام حولهم ولا انتظر منهم أن يسترضوه بإشباعه وإروائه، ولماذا لا يسعى لنفسه كما كان يسعى لها وهو مقيم؟».

ثم يتابع الأستاذ العقاد مناقشة هذا الرأى فيقول:

(١) راجع كتاب (الدين) ص ١٣٣

«إذا كان الهمجي كالطفل ينظر إلى جميع الأشياء كنظرته إلى الحى الذى يقصد ما يفعل، ترى لماذا لم يعبد الهمجي جميع الأشياء؟ ويرى أنه قد عرف قبل العبادة وصفاً للربوبية تتميز به بعض الكائنات عما سواها».

والذين قاموا برحلات إلى أفريقيا الوسطى والتقوا بالاقزام هناك - وهم فى أدنى درجات الهمجية - عرفوا من دراستهم لأمورهم أنهم يؤمنون برب عظيم فوق الأرباب^(١).

٤ - (ويذهب بعض الباحثين إلى أن السحر هو أصل العبادة، وأصل الشعائر الدينية) ولو أمعنا النظر لوجدنا أن السحر صنعة السحرة والكهان الذين يقومون على خدمة الآلهة، فكيف يقال: إن السحر هو أصل العبادة، وهو لم ينشأ إلا على أيدي سدنة الآلهة الذين يدعون أنهم قرييون منها عليهم بما يرضيها ويغضبها؟

ومن المسلم به منذ القدم أن طبيعة السحر تختلف عن طبيعة العبادة؛ لأن مجال السحر دائماً مرتبط بالأساليب المنحطة والأمور الخبيثة والأشياء البغيضة المستقدرة التى تكرهها النفوس وتعافها.

أما العقيدة فهى دائماً طريق إلى الخير، وتوجه بالرجاء إلى الإله طمعاً فى النبل من كرمه، وهو دعوة إلى التطهر، على النقيض من أساليب السحر الخبيثة، وقد ميز الناس منذ قديم بين السحر والعبادة، فاتخذوا ما يرجى من الآلهة أرباباً يتوجهون إليها بالعبادة، واتخذوا أرباب الشر والفساد أعواناً على السحر^(٢).

٥ - ويذهب غالبية الباحثين فى الأديان من الأوروبيين إلى (أن الضعف الإنسانى هو الأصل فى نشأة العقائد الدينية) لأن الإنسان لما أبصر نفسه ضعيفاً أمام مظاهر الكون، بما فيه من أحياء، وقوى طبيعية احتاج إلى سند يستشعر الأمن والطمأنينة فى حماه، فابتدع فكرة الإله، يعتمد عليه، ويتوجه إليه بالدعاء والصلاة كلما خشى عدوان الآخرين عليه.

(١) كتاب (الله) ص ١١

(٢) راجع كتاب (الله) ص ١٢

ولو تمسحنا مع هذا الرأي قليلا لكان معنى ذلك أن الضعفاء من الناس هم المتدينون، أما الأقوياء فليسوا متدينين، وهذه قضية ينقضها الواقع التاريخي منذ أقدم العصور، فأصحاب العقائد والأديان هم الأقوياء في أخلاقهم وإرادتهم وعزائمهم، وهم المستعدون دائما للتضحيات الجسام، وذوو المقدرة على مواجهة الصعاب، والصبر على الشدائد مما لا يقدر عليه إلا الأقوياء الأشداء، أما غير المتدينين فلم يعرف عنهم ما عرف عن المتدينين من صلابة وقوة في الحق لا تلين، وهذا الواقع البديهي يقضى على الرأي القائل: بأن العقيدة الدينية ملجأ للضعفاء قضاء مبرما، وينقضه من أساسه.

وفي التدليل على صحة ما استنتجناه:

يقول الأستاذ العقاد: «فليس معدن الإيمان من معدن الضعف في الإنسان، وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهي الهزيل، ولا إمام الناس في الاعتقاد هو إمامهم في الوهن والهزال، وربما كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق أن العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون، وعظمة أسرارهِ وخفائهِ، لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه.

ومن هنا تكون الحاسة الدينية مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذي يحيط بالإنسان سرمديا بعيد الأغوار عميق القرار.

فليس الكيان الصحيح هو الذي يمر بهذا الوجود السرمدى كأنه لا يراه، ولا يهتز له ولا يستجاش من أعماقه إذا سبر غوره فقصر عن مداه.

ولنأى الكيان الصحيح هو الذى يجيش بتلك الحاسة القوية، فيستهول الكون، ويستقبله بالحيرة والتقديس؛ لأنه فى الواقع هائل محير جامع لمعانى القداسة من حيث نجمت فى لغة اللسان أو لغة الضمير.

وعلى هذا تكون العقيدة من مصدر الصحة؛ لأنها تجارب الوجود المحيط بالنفس الإنسانية، ولا تكون من مصدر النقص والغفلة عن حقائق الأمور^(١).

(١) راجع كتاب (الله) ص ١٣

وقريب من الرأى السابق رأى فرويد Freud الذى يقول: إن العقيدة الدينية نشأت من الشعور بالخوف الممزوج بالعاطفة الجنسية عند بعض أصحاب الأعصاب السقيمة، والذين يغلب عليهم الهوس فى اعتقادهم، ويرى أن الحب الإلهى هو بمنزلة الحب الجنسى فى حالة التسامى أو حالة الحماسة^(١).

٦ - الطوطم: نظراً لما لاحظته الباحثون من انتشار فكرة الطوطم بين القبائل الهمجية فى القارات المختلفة: فى أفريقيا وأستراليا والأمريكتين، وبعض بلاد آسيا وجزرها، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى الربط بين الطوطم والدين، وهم لهذا يرون (أن الطوطم هى بداية الأديان عند الهمج).

وقد نشأت فكرة الطوطم من اعتقاد بعض القبائل أن أباهما الأعلى قد حل فى حيوان أو نبات أو حجر فتقدسه، وفى حالة الزعم بحلول الأب فى الحيوان تدعى القبيلة أن هذا الحيوان أب لها، وفى هذه الحالة يحرمون قتل هذا الطوطم وأكله، وكذلك يحرمون الزواج بين الذكور والإناث المنتمين إلى طوطم واحد، وإذا كانت القبيلة كبيرة العدد، وكانت تشتمل على عدد من البطون اتخذ كل بطن منها (طوطم) خاصا به، وعند ذلك يجوز التزاوج بين إناث هذه البطون وذكرها، إلا أن التحريم يظل قائماً بالنسبة لمن يتمون للطوطم الكبير.

ويورد الأستاذ العقاد خلاصة لرأى المخالفين لفكرة نشأة العقيدة عن الطوطم، وهم يرون أن الطوطمية ليست أصل العقيدة الدينية؛ لأنها تنشأ بعد أن تعرف القبائل أنظمة الزواج، وآداب التعامل، وليس من شك أن الإنسان يهتدى إلى تلك النظم وهذه الآداب بعد أن يكون قد عرف بعض العقائد والأعراف التى تنظم له هذه الأمور، وهذا يعنى أن الالتزام بهذه النظم والآداب لا يمثل المرحلة الأولى فى الاعتقاد.

هذا إلى جانب أن هناك قبائل عدة تعتنق فكرة الطوطم، ولكنها فى الوقت

(١) راجع كتاب (الله) ص ١٤

نفسه تتخذ لها آلهة أخرى تتوجه إليها بالعبادة، وكذلك وجدت قبائل لا تضيف على الطوطم صفة الأرباب^(١).

ويرى علماء الاجتماع أن نظام الطوطم نظام مدنى قضائى اقتصادى أكثر منه نظاماً دينياً، ويذهب لانج (Lang) وفريزر (Frazer) الفرنسيان إلى أن نظام الطوطم ليس له صلة بالدين البتة. ويرى الدكتور دراز أن الطوطم تشير إلى شعارات قومية تعرف القبائل بها أنسابها وتنمى فى أفرادها الشعور الوطنى، وأنها باعثة على التعاون، واحترام توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة، فهم لا يعبدون تلك الرسوم ولا مدلولاتها، بل لهم معبود روحى يعتمدون عليه فى جلائل أعمالهم ودقائقها حتى إنهم ليستلهمونه أو يدعونه ليرشدتهم إلى انتقاء أمثل الأسماء لأبنائهم.

ويورد رأى «دوركاييم» الذى يعترف أن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى أو الإله الأحـد، وأنه كائن أزلى أبدي تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وأنه هو الذى يثير البرق ويرسل الصواعق، وإليه يتوجه فى الاستسقاء وفى طلب الصحو، وهو الذى خلق الحيوان والنبات وصنع الإنسان من الطين، ونفخ فيه الروح، وهو الذى علم الإنسان البيان، وألهمه الصناعات، وشرع له العبادات، وهو الذى يقضى فى الناس بعد الموت فيميز بين المحسن والمسيء^(٢).

٧ - ويرى أوجست ماباتييه (أن التدين نشأ عند الإنسان نتيجة صراع وجد نفسه فيه بين الإحساس والإرادة، وأصيب الإنسان بصدمات متوالية نتيجة لهذا الصراع الدائم فعاش المرء فى أزمة داخلية نتيجة الصراع بين الإحساس والإرادة، فأراد أن يجد عوناً على التغلب على هذه الأزمة، فنشأت عنده فكرة الدين؛ ليجد فى رحابها حلاً لهذه الأزمة الطاحنة) وذلك لأن الإنسان بحكم فطرته يلازمه شعور ثابت بالتبعية المطلقة لقانون الوجود العام، وعن هذا الشعور بالتبعية تنبثق فى النفس العقيدة الإلهية^(٣).

(١) راجع كتاب (الله) ص ١٥، ١٦

(٢) راجع كتاب (الله) ص ١٥٦، ١٥٧

(٣) راجع كتاب (الله) ص ١٣٧، ١٣٨

٨ - ويرى هنرى برجسون أن العقيدة الدينية نشأت عند الإنسان من مصدرين رئيسيين: أحدهما اجتماعي، والآخر فردي، أما المصدر الاجتماعي: فهدفه فائدة المجتمع ونفع النوع كله، ويرى أن الإنسان لما أراد أن يكبح جماح نفسه، ويكف من غلواء أنانيته، ويخفف من رغبته الجارفة في التملك، ويتشجع على نسيان مصالحه الخاصة في سبيل المصلحة العامة، لجأ إلى فكرة الدين ليجد فيها عوضاً مستقبلاً عما يتنازل عنه في حياته لصالح الجماعة، وعن هذا الطريق نشأت عند الإنسان فكرة الجزاء والعقاب الأخروي من الإله الذي يعبد، ويجاريه على أعمال الخير والشر.

وفي تفسير رأى «برجسون» يقول الأستاذ العقاد: «ولما كانت إرادة الحياة مستكنة في النوع كما هي مستكنة في آحاده على انفراد نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها «برجسون» بملكة الخرافة أو الرمزية أو ملكة الأساطير، وتكفلت للإنسان بخلق العوض الذي يستعوض به عن متاعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه، فاعتقد الجزاء بعد الحياة، وأحسن أنه محاسب على الإضرار بغيره، مثاب على الخير الذي يسديه إلى أبناء نوعه، واقتربت فيه أثر الفرد بأثرة النوع، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين^(١).

أما المصدر الفردي: فهو ما لمجده عند العباقرة وذوى القدرات الممتازة، فإنهم لا يصعدون في فكرتهم عن الإله من منطلق النفع والعوض على ما يقدمون، ولكنهم يدركون بما أوتوه من قوة الإلهام والبصيرة ضياء الحق فيندفعون نحوه، ويسوقون الناس إلى الأخذ به، فهم الذين يؤثرون في مجتمعاتهم بما يرسون فيها من قواعد أخلاقية وسلوكية، ويضعون القوانين والنظم للآخرين على هدى ما رأوه من نفاذ الرأي وسداد البصيرة، وبالجملة فهم في نظرتهم لا تحكمهم منفعة ولا عوض وإنما يسعون إلى تأصيل القيم العليا للإنسان، وهذه القدرات فيهم جعلتهم يصلون إلى إدراك أن هناك قوة عليا دائمة سرمدية تغير وتؤثر، ولا تتأثر بغيرها، وهي الذات الإلهية^(٢).

(١) راجع كتاب (الله) ص ١٦، ١٧

(٢) راجع كتاب (الدين) ص ١٤٠ وكتاب (الله) ص ١٧

ومن الملاحظ أن برجسون يعترف هنا بالحقيقة الإلهية، وإمكانية الوصول إلى معرفتها والاهتداء إلى حقيقتها العليا.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يجعل نشأة العقيدة الدينية عند الجماعات العادية أمراً مخترعاً؟

الا يكون ذلك - كما يقول الاستاذ العقاد -: من باب التلمس البديهي لتلك القوة الكونية؟ لماذا لا يكون نتيجة لبحث متواصل اهتدى إليه الإنسان مع الزمن أو عرفه عن طريق الهداة والرسل الذين بعث الله بهم لهداية البشرية كما أخبرنا قرآنه... ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١).

وإذا سلم «برجسون» بأن هناك ذاتاً إلهية، فكيف يسمى البحث عنها حيلة أو وهماً؟

وفي نقد رأى «برجسون» يقول الدكتور دراز - بعد أن يدلل على خطئه -: أما إذا أخذنا قانون الأخلاق في جوهره الصحيح، واعتبرنا ما له من سلطان مركز في طباع الناس على اختلافهم موحياً للعقيدة الإلهية، ودليلاً على صنعة الفاطر الأول الذي ألهم النفوس هداها، ورسم لها طريق فجورها وتقواها، فتلك فكرة سليمة ومنطق مستقيم^(٢).

هذه هي أهم الآراء التي تداولها الباحثون الغربيون الذين اهتموا بالبحث في أمور العقيدة ونشأة الدين، وهي - كما ترى - تنظر إلى العقائد الوضعية فقط، وتغفل أو تتغافل عن الحقيقة التي أشرنا إليها في مطلع هذا البحث، وهي: أن العقيدة نشأت مع الإنسان منذ أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها.

وبهذا نكون قد انتهينا من ذلك الفصل الذي عرضنا فيه لما نرى من وجهة النظر الإسلامية في نشأة العقيدة، وما سجلناه من آراء الباحثين الغربيين في هذا المجال. معقيين على آرائهم، كاشفين عن وجه الخطأ فيها، وقد آن الأوان أن نتقل بالبحث إلى قضية أخرى تتناول دعوات الأنبياء التي أشار إليها القرآن الكريم.

(١) فاطر، من الآية: ٢٤

(٢) راجع كتاب (الدين) ص ١٤٢

دعوة نوح عليه السلام

على الرغم من أن آدم أبا البشر - عليه السلام - جاء بالتوحيد، وأورث عقيدة التوحيد إلى أبنائه من بعده، وكان بينه وبين نوح - عليه السلام - نبيان، هما: شيث، وإدريس كما يذكر ذلك علماء قصص الانبياء، إلا أن القرآن الكريم يحدثنا أن قوم نوح كانوا مشركين يتخذون آلهة من دون الله، سماهم القرآن الكريم ودًّا وسواعا ويعقوث ويعوق ونسرا، وهذا يجعلنا نتساءل: كم من الزمن قد مضى بين آدم ونوح - عليهما السلام -؟

وعلى الرغم من أن الباحثين في قصص الانبياء يقررون أن ما بين وفاة آدم وولادة نوح كان ١٢٦ سنة أخذوا مما جاء في التوراة فإن ذلك يجعلنا نتحفظ في قبول هذا الزمن؛ لأنه من المستبعد أن يتخذ القوم آلهة من دون الله والعهد بآدم قريب منهم، وكذلك العهد بشيث وإدريس ليس يبعد، ونظن أن الزمن قد امتد بين آدم ونوح - عليهما السلام - أكثر من ذلك بكثير حتى تبدل القوم الوثنية والشرك بالتوحيد.

والحقيقة الثابتة التي لا مجال فيها للجدال ولا للمرء أن قوم نوح كانوا مشركين يتخذون من دون الله آلهة؛ وذلك لأن الله - سبحانه - يقول عن قوم نوح لما دعاهم إلى التوحيد: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَاقُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١).

وقد ورد ذكر نوح - عليه السلام - في القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة في عدة سور، وجاءت سورة خاصة باسمه، وهى السورة رقم واحد وسبعين في المصحف، وعدد آياتها ثمان وعشرون آية.

(١) نوح، الآية: ٢٣

ونوح - عليه السلام - هو أول الرسل، وآدم أول الأنبياء، ومن المعروف عند العلماء أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، وهو أول أولى العزم من الرسل كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد عمر نوح في قومه مدة طويلة حددها القرآن الكريم بخمسين وتسعمائة عام كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١) والذي يفهم من نص الآية أن مدة الألف إلا خمسين جاء بعدها الطوفان، وهذا يعني أن دعوة نوح لقومه استمرت هذه المدة المشار إليها، وأنهم لما أهلكوا بالطوفان كان بعدهم من ركب مع نوح في السفينة، وكلهم كانوا مؤمنين موحدين وإن كانوا قليلى العدد كما يفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢).

مراحل دعوة نوح عليه السلام:

وقد حدثنا القرآن الكريم عن مراحل عدة مرت بها دعوة نوح - عليه السلام - وهو يحاور قومه ويدعوهم إلى التوحيد، ويذكرهم بنعم الله عليهم، ويرغبهم في ثوابه، ويخوفهم من عقابه، وسنحاول أن نغضى مع القرآن الكريم نتعرف على تلك المراحل، ونستشهد لكل مرحلة بما يدل عليها من كتاب الله سبحانه، ثم نشير إلى المناهج والأساليب التى استعملها نوح - عليه السلام - على ضوء فهمنا للآيات الكريمات، ونستخلص الدروس المستفادة من دعوته - عليه السلام -.

ولن تكون الدراسة للدعوة استعراضا تاريخيا، وإنما سنقف عند بعض الأحداث التى تمثل مرحلة من المراحل لدعوة هذا النبى الكريم.

أولا، دعوته إلى التوحيد:

أنبياء الله ورسله هداة إلى الحق، ودعاة إلى الطريق المستقيم، يحاولون تصحيح الخطأ، وتقويم المعوج، وهداية الضال، ونصح العاصى، وتعليم

(١) العنكبوت، الآية: ١٤

(٢) هود، من الآية: ٤٠

الجاهل، ولقد وجد نوح قومه قد انحرفوا عن العقيدة الصحيحة، واتخذوا من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع، وقبل ذلك هم مكلفون من الله سبحانه بأن يأخذوا بيد أقوامهم إلى الطريق المستقيم، وإخلاص العبادة لله وحده، ولذلك لما قام نوح بدعوته أخذ يوجه قومه إلى معرفة الله الذى بيده ملكوت كل شيء، والذى إليه مرجع كل شيء، وسيجارى كل إنسان بما عمل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وليس أبعد فى الضلال من الانصراف عن عبادة الله الخالق رب السموات والأرض، وخالق كل شيء إلى عبادة أوثان وأصنام لا تسمع ولا تجيب، ولا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؛ لذلك اتجه نوح إلى قومه يبصرهم ويدعوهم، ويبشرهم وينذرهم، ويخوفهم عذاب الله إن هم أصرروا على الكفر والضلال.

ولقد سجل القرآن الكريم دعوة نوح قومه إلى عبادة الله وحده فى عدة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْقُورُوا إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۖ وَنُوحِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾^(٣).

المنهج والأساليب المستعملة فى هذه المرحلة:

استعمل نوح - عليه السلام - فى دعوة قومه إلى التوحيد المنهج العاطفى؛ حيث ناداهم بقوله: يا قوم.

(١) الأعراف، الآية: ٥٩

(٢) هود، الآيات: ٢٥، ٢٦

(٣) نوح، الآيات: ١ - ٤

واستعمل أسلوب الموعظة الحسنة فى شكل التهيب - فى آيات الاعراف وهود - المعبر عن خوفه عليهم، حيث قال: ﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فى الاعراف، و﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فى هود. واستعمل كذلك أسلوب الموعظة الحسنة فى آيات سورة نوح، ولكنه جمع بين شكلى الترغيب والتهيب معا.

ثانياً، اتهام قومه له، واعتراضهم على متابعة الضعفاء، وضيقهم بجداله إياهم، وكان المنتظر من دعوته السابقة التى تنبض بعاطفة حبه الخير لهم وحرصه على هدايتهم وخوفه من أن ينالهم العذاب إن أعرضوا ورفضوا أن يستجيبوا له ولكنهم تمادوا فى عنادهم وطغيانهم ولم يستجيبوا لتلك الدعوة الكريمة من نبي الله نوح - عليه السلام - ولم يكتفوا بالرفض والإعراض فقط، ولكنهم اتهموه بالضلال والكذب، وعابوا عليه متابعة الضعفاء، وعبروا عن ضيقهم بجداله إياهم ومحاولته إظهار الخير الذى ينالهم إن هم استجابوا؛ لأنه لا هدف له إلا النصح لهم، وإبلاغ رسالة الله إليهم.

وفى تصوير موقفهم المعاند فى هذه المرحلة يقول الله تعالى فى سورة الاعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّنَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (١).

وفى سورة هود يقول تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرُكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرُكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِنُكَادِى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَتَقُونَ مِن رَّبِّى وَعَ السَّبِّ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَتُعَمِّيَتْ عَلَيْكُمُ أَنْزِلُهُمْ هَآؤُلَآئِكَ كَفَرُوا هُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَنْقُورُ لَا أَشْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا

(١) الاعراف، الآيات: ٦٠ - ٦٣.

إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ قَوْمًا يَحْتَمِلُونَ ﴿١٠٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَدْعُونَهُ ﴿١١٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا يَنْتُحِقُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾

ولا يقتصر قوم نوح على ما سبق بل يتمادون ويهددونه بأنه إذا لم يتوقف عن دعوتهم فسيرجمونه، وقد عرضت سورة الشعراء لهذا التماذى فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا قَالُوا اتَّوَيْنَاكَ وَاتَّبَعْنَاكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِقْ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾

المناهج والأساليب المستعملة في هذه المرحلة

استعمل نبي الله نوح في هذه المرحلة المنهج العقلي كما يبدو ذلك بوضوح من آيات سورة الأعراف وآيات سورة هود. واتخذ أسلوب المجادلة بالحسنى طريقاً إلى إقناعهم ولفت أنظارهم إلى الحق الذي جاءهم به. واستعملوا هم أسلوب التهديد والوعيد بعد أن ضاقوا بحواره ومحاولة إقناعهم.

ثالثاً: استمرار نوح في دعوته دون ملل

حتى بلغ هذا الاستمرار ٩٥٠ عاماً، وإصرارهم على الكفر ورفض الاستجابة له، وهذه المرحلة تمثل صبر نوح - عليه السلام - ذلك الصبر الذي فاق التصور

(١) هود، الآيات: ٢٧ - ٣٢

(٢) الشعراء، الآيات: ١٠٥ - ١١٦

حتى بلغ هذا العدد من السنين، مما يعطى الدعاة درسا فى الصبر والجلد ومواجهة العنت والصعاب بعزم ثابت ودأب مستمر، وفى هذه المرحلة يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١).

رابعاً: تذكيره إياهم بنعم الله عليهم؛

إنه من المؤلف فى مثل هذه الحالة بعد أن رأى إصرارهم على الكفر جيلاً بعد جيل كأنما يوصى السابق اللاحق بالإصرار على الكفر، نقول: من المؤلف حينذاك أن يحاول نوح لفت أنظارهم بكل الوسائل الممكنة والأساليب المتاحة، فأخذ يذكرهم بنعم الله عليهم لعل قلوبهم القاسية تهتز حينما يذكرهم بما أفاض الله عليهم من نعم، أو لعل عقولهم المتحجرة يتسرب إليها بصيص من شعاع الإيمان، ولذلك نرى نوحاً - عليه السلام - فى هذه المرحلة ينوع فى استعمال المناهج والأساليب، وينتقل من المنهج العاطفى إلى المنهج العقلى، يقول تعالى على لسان نوح - عليه السلام -: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ نَهْرٌ مَّائِدًا تَجْعَلُ لَكُمْ فَاكِهًا وَيَجْعَلُ لَكُمْ فَاكِهًا وَيَجْعَلُ لَكُمْ فَاكِهًا ۝ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (٢).

المناهج والأساليب؛

تضمنت الآيات الأولى المنهج العاطفى وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكل التذكير بالنعم، ثم استعمل المنهج العقلى فى الآيات الأخيرة ابتداء من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ وإن كان الجانب العاطفى والجانب الحسى بارزين أيضاً فى هذه الآيات.

(١) العنكبوت، الآية ١٤؛

(٢) نوح، الآيات: ١٠ - ٢٠.

خامسا، اتهام قوم نوح له بالجنون،

كان المنتظر بعد أن حاول نوح - عليه السلام - لفت أنظار قومه إلى نعم الله التي يتقبلون فيها، وبعد أن حاول أن يبعث عقولهم على التفكير في آثار قدرة الله في الأرض وفي السماء أن يكون هناك محاولة منهم للتنبيه أو التخلي عن العناد، غير أنهم أغلقوا قلوبهم وعقولهم واندفعوا يكيلون الاتهامات الظالمة لنبي الله نوح - عليه السلام - فرموه بالجنون ومحاولة الظهور بالفضل عليهم، وأنهم ينتظرون حتى يخلصهم الموت منه، وفي ذلك يقول الحق - سبحانه -: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ فَتَرَىٰ يَصُوبُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٥﴾﴾ (١)

سادسا، أمر الله نوحا أن يصنع الفلك بعد أن أوحى إليه أن أحدا من قومه لن يؤمن بعد من آمن:

بعد أن بلغ الكفر بقوم نوح قمته واسترسالهم في اتهامهم له بالجنون، وانتظار موته اشتد به الأسى؛ لأنه لم يعد هناك أمل في إيمانهم بعد أن تلقى الوحي من ربه بأنه لن يؤمن أحد منهم بعد ذلك؛ ولذلك اتجهت مسيرة الدعوة في إيجاد وسيلة جديدة تتفق مع الأحداث القادمة، فجاءه الأمر من الله بصنع الفلك وأن لا يبتس بما صنع قومه معه، وتعتبر هذه الظروف مرحلة إعداد لما سينزل من أحداث، وفي ذلك يقول الله - سبحانه -: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَطِّبْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿١٧﴾﴾ (٢)

سابعا، الأخذ في صنع الفلك وسخريه قومه منه،

أخذ نوح يصنع الفلك استجابة لوحي الله له، وأخذ قومه يسخرون منه كلما مروا عليه لما رأوه يصنع الفلك وليس هناك نهر جار، ولا بحر متلاطم الأمواج،

(١) المؤمنون، الآيات: ٢٤، ٢٥

(٢) هود، الآيات: ٣٦، ٣٧

ولكن نوحا على يقين مما يصنع؛ لأن الأمر جاءه من علام الغيوب مشفوعا بالحكم بإغراقهم؛ ولذلك كان يواجه سخرية بسخرية مثلها، كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْتُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنِّي أَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ (١).

ثامنا: دعاء نوح على قومه لعصيانهم بعد أن أخبره الله بعدم إيمانهم:

رأى نوح قومه يوصى بعضهم بعضا بالتمسك بعبادة الأصنام، وتفتنهم في المكر والإيذاء، ففقد الأمل في إيمانهم بعد أن أخبره الله بذلك، فدعا الله أن لا يبقى منهم أحدا؛ لأنهم لن يعقبوا إلا كل كفار عنيد، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَرْكِبُنِي الْفُلَ فَاجِرًا أَوْ تُنْقِصَنِي مِنَ الْفُلِ فَأَكُونَ عَصَى الْفُلِ وَمَكَرًا ۚ فَرَأَيْتُكَ تَقْرُبُنِي ۖ فَنَادَيْتُكَ فَقَالَ نَحْسُ النَّاسِ مَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ وَلَا ذَرْبًا لَهُمْ أَفَإِنَّكَ تُعِلُّهُمْ إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْبَحْرِ مَاءٌ غَدِيقٌ ۚ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَقِّلٌ بِالدُّعَاءِ ۖ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۚ إِنَّمَا يُجِيبُكَ رَبُّكَ بِالدُّعَاءِ ۚ إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُطْغُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا ﴿٣٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۚ﴾ (٢).

تاسعا: أمر الله سبحانه لنوح - عليه السلام - أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين لما بدأت بوادئ الطوفان بضوران التنور:

تهيا نوح - عليه السلام - لاستقبال الحدث الهام لما بدأت بوادئ التنور، وجمع في الفلك من كل صنف من المخلوقات زوجين مع المؤمنين من أسرته وأتباعه،

(١) هود، الآيات: ٣٨، ٣٩

(٢) نوح، الآيات: ٢١ - ٢٨

وذلك عن أمر الله ووحيه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ (١) 》.

ولعل القارىء يتساءل: فى أى منطقة من الأرض كان هذا التنور؟ وما هو التنور؟ قال عدد من المفسرين: إن ذلك كان فى العراق، والتنور: هو الموقد.

عاشرا، الطوفان ودعوة نوح ابنه أن يركب معهم،

وهنا أمر الله السماء أن ينهمر مطرها، والأرض أن يفور منها الماء حتى بلغ الماء قمم الجبال، وأصبحت السفينة تمشى وسط جبال من الأمواج، ورأى نوح ابنه معترلا فدعاه ليركب معهم، فأبى، وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد المثير فى سورتين، الأولى سورة هود، وكانت مفصلة، والثانية فى سورة القمر، وكانت مجملة، أما آيات سورة هود فتقول: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ (١) ۝ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِئْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ۝ (٢) ۝ قَالَ سَتَأْوِئُ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۝ (٣) ۝ وَقِيلَ يَتَازَرُّ، أَبْلَغِي مَاءُكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ (٤) 》.

وأما آيات سورة القمر فتقول: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝ (١) ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ۝ (٢) ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ (٣) ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُشِّرَ ۝ (٤) ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ ۝ (٥) 》.

(١) هود، الآية: ٤٠

(٢) هود، الآيات: ٤١ - ٤٤

(٣) القمر، الآيات: ١٠ - ١٤

حادى عشر: دعاء نوح ربه من أجل ابنه:

ولما رأى نوح المياه تغمر الأرض وتبلغ قمم الجبال، ورأى ابنه يصيبه ما يصيب الكافرين اتجه إلى الله بالدعاء، لعله ينجى ابنه بناء على ما فهمه من أمر الله له بأن يحمل معه أهله، وهو أحد أفراد أهله، فذكره الله أن من يرفض عقيدة التوحيد التى دعا إليها لن يكون له شفيع إلى النجاة، وهنا نأخذ عظة ودرسا وعبرة من أن القرابة لا تنفع صاحبها إذا كان عاصيا لله؛ ولذلك كان جواب الله سبحانه لنوح - عليه السلام - إنه ليس من أهلك الذين كتبت لهم النجاة؛ لأنه لم يؤمن بالله، وهذا الموقف يذكرنا بما قاله رسول الله ﷺ لبني هاشم حتى لا يتكلوا على صلة القربى به ﷺ حين قال: «يا بني هاشم: لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأحسابكم، فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئا» وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّقَنَّ لَكَ يَهُدَىٰ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٧) قِيلَ يَنْتُوخُ أَهَيْطَ بِسَلْمٍ مِّنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)

وحول هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها، ونعنى مجيء الطوفان ثم انحساره، وإهلاك الكافرين بالفرق ولحجة المؤمنين مع نوح - عليه السلام - يثور تساؤل: هل عم الطوفان الأرض كلها؟ أو غمر الجزء الذى كان فيه نوح وقومه؟ هذان رأيان لأهل العلم حول وقوع الطوفان، وكذلك وقع التساؤل عن الجودى أين يقع؟ هناك أقوال متعددة، أحدها: أنه جبل بالموصل، الثانى: أنه جبل بالجزيرة، الثالث: أنه اسم لكل جبل.

وهنا وصلنا إلى انتهاء المراحل التى مرت بها دعوة نوح عليه السلام.

(١) هود، الآيات: ٤٥ - ٤٨

الدروس المستفادة:

- ويمكن أن نوجز الدروس المستفادة من دعوة نوح - عليه السلام - فيما يلي:
- ١ - بذل الجهد فى بيان الحق وإظهاره والدعوة إليه .
 - ٢ - عدم السماح للدعوات المتعصبة بأن تؤثر فى مجرى الأمور .
 - ٣ - لا يفرق الإيمان بين الأغنياء والفقراء .
 - ٤ - الصبر على مواجهة المصاعب مهما كانت .
 - ٥ - ليس للعلاقة الأسرية دخل فى الفوز برضا الله تعالى ، وإنما الفيصل فى ذلك هو الإيمان والعمل الصالح .
 - ٦ - البحث عن وسائل جديدة تستطيع الدعوة بها أن تصل إلى غايتها المرجوة .

* * *

دعوة إبراهيم عليه السلام

هو خليل الله إبراهيم - عليه السلام - وأبو الأنبياء، وأعطى لقب «خليل الله»؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١) وأطلق عليه أبو الأنبياء لأن كل الأنبياء الذين جاءوا من بعده من ذريته وكان خاتمهم محمدا ﷺ...

وقد ذكر اسمه في القرآن الكريم تسعا وسبعين مرة، وجاءت سورة باسمه في القرآن الكريم، وهي السورة رقم (١٤) وآياتها ثنتان وخمسون آية، وهي من السور المكية.

وترددت أخبار أبي الأنبياء في أربع وعشرين سورة من القرآن الكريم. وقد نشأ أبو الأنبياء - عليه السلام - في قوم يتخذون أصناما آلهة، بل روى أن آباءه كان يصنع الأصنام ويبيعها، وكان ممن دعاهم جماعة يتخذون من الكواكب آلهة؛ ولذلك كانت دعوته متجهة إلى هداية هؤلاء وأولئك، واتخذت عدة مراحل، وكان من الأمور البدئية أن يبدأ بدعوة أبيه وقومه الأقربين إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وقد علمنا القرآن الكريم أن تكون دعوة الآباء قائمة على التلطف، والحرص على جلب الخير، وإظهار وشائج القرى التي تستدعى التعبير عما تقتضيه هذه العلاقات من لفت الأنظار في لطف وحرص على الفوز بالنجاة من العذاب، ومن أجل ذلك مرت مراحل دعوة إبراهيم بفترتين متميزتين، أولاهما تتعلق بإبراهيم نفسه، وإعداداه لتحمل المسئولية العظيمة التي سيضطلع بها، ويقتضى ذلك أن يتعرض لاختبار شديد حتى لا يكون هناك شيء يشغله عن

(١) النساء، من الآية: ١٢٥

الدعوة وما تقتضيه من جهد وتضحيات، والقرآن الكريم يحدثنا أن إبراهيم - عليه السلام - قد تقدمت به السن ولم يرزق ولدا إلا بعد أن طعن في الشيخوخة، وهذا يفهم من الآية الكريمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

ومن البدهى تعلق الوالد بابنه الذي رزقه على كبر، ولما جاء إسماعيل وتعلقت به نفس أبيه أراد الله أن يتلى خليله أولا باغتراب هذا الابن الوحيد وبعده عنه، وثانيا بالامر بذبحه؛ حتى يضرب إبراهيم - عليه السلام - المثل للدعاة على مر الاجيال في الصبر على مفارقة فلذات الأكباد، بل والتضحية بهم إذا كان ذلك أمرا من الله.

أولا: أما الأمر الأول ويتمثل في الابتلاء بمفارقة الابن الوحيد، ووضعه في مكان لا رزق فيه ولا ضرع، وذلك حينما جاءه الوحي بأن يضع إسماعيل وأمه عند البيت المحرم، وفي هذا يقول الحق - تبارك وتعالى - على لسان إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٢).

وهنا يبدو سؤال: هل كان البيت معروفا قبل إبراهيم؟ إن لفظ (عند) الذي جاء في الآية الكريمة يفيد أن البيت كان مكانه معروفا قبل ذلك، وستزيد هذا الأمر بحثا فيما يأتي، ويستفاد كذلك من دعاء إبراهيم أن هذا المكان سيكون مهوى أفئدة الملايين من البشر، وأن الثمرات ستجبي إليه من سائر أقطار الأرض، وهذا وذاك أمران ملموسان ندرتهما ونعرف آثارهما حينما نرى قلوب الملايين تهفو إلى هذا البيت زائرين وحاجين ومعتمرين، ونرى أيضا كل خيرات الأرض متوفرة طوال العام.

ثانيا: أما الأمر الثاني فيتمثل في الاستعداد للتضحية بهذا الابن الذي رزقه على

(١) إبراهيم، الآية: ٣٩

(٢) إبراهيم، الآية: ٣٧

كبر، وذلك حينما شب وبلغ السعى مع أبيه ليعاونه على قضاء مسئولياته، ولكن الوحي يأتيه طالبا إليه أن يذبح ابنه هذا الذي اشتاقت له نفسه طويلا والذي اغترب عنه منذ رضاعه، فلم يكن يراه إلا لماما، والذي أصبح قادرا على أن يساعد أباه على قضاء حاجاته، وعندئذ يأتيه الأمر من السماء بأن يذبح ابنه اختبارا له وابتلاء، وهنا تبرز التضحية بأسمى معانيها، والاستجابة لأمر الله مهما كان ذلك قاسيا على النفس البشرية، ويبدو أيضا التسليم المطلق من الابن حينما يخبره أبوه بما هو مقدم عليه، فيكون الجواب: ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١) أما هذا الموقف العصيب والابتلاء الذي لم تعرف البشرية له مثيلا فتحدثنا عنه الآيات التالية: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِّ بْنِ حَلِيمٍ﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُنِي إِيَّيْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿فَلَمَّا أَتَمَّ وَلَّهُ وَلِجَيْنِ﴾ ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْ أَبَاهُ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

وهنا يجيء سؤال، وهو أن إبراهيم - عليه السلام - استعد لذبح ابنه على إثر رؤيا رآها، فهل الرؤيا من الوحي؟ والجواب: أن رؤيا الأنبياء وحي، وكان الوحي يأتي إلى رسول الله محمد ﷺ في الأشهر الستة الأولى من الرسالة عن طريق الرؤيا، وجاء عن رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» (٣) وذلك أن الرسالة استمرت ثلاثة وعشرين عاما. والستة الأشهر تعادل واحدا إلى ستة وأربعين من ثلاثة وعشرين عاما، وقد أخبر القرآن الكريم أن رؤيا رسول الله ﷺ صادقة، فالله يقول: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ

(١) سورة الصافات، من الآية: ١٠٢

(٢) الصافات، الآيات: ١٠١ - ١١٠

(٣) راجع فتح الباري ١٢/٣٧٣ (كتاب التعبير)

لَا تَخَافُونَّ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١﴾، وقد قص علينا القرآن الكريم أيضا رؤيا يوسف - عليه السلام - التي رآها وهو صغير وقصه إياها على أبيه - عليهما السلام - وتأويله إياها لأبيه بعدما التقيا، أما الرؤيا فهي: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٢﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ نَفْسٌ لَا تُقْصِرْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣﴾﴾ (٢).

وأما تأويلها ففي قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رِفْقِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رِفْقِي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ (٣).

وقد افرد أصحاب كتب السنن أبوابا وكتبا خاصة، بعضهم يجعل عنوانه (التعبير) كما صنع البخاري، وبعضهم يجعل العنوان (الرؤيا) وقد جاء عند البخاري في أول (كتاب التعبير) حديث أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ... الخ الحديث...» (٤).

جاء كذلك الحديث الذي يقول: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ» وهناك زيادة عند النسائي تقول: «يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ» (٥).

(١) الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) يوسف، الآيات: ٤، ٥.

(٣) يوسف، الآية: ١٠٠ وراجع فتح الباري ج ١٢ ص ٣٧٦ وما بعدها.

(٤) راجع فتح الباري ج ١٢ ص ٣٥١ (كتاب التعبير).

(٥) راجع فتح الباري ج ١٢ ص ٣٧٥.

ثالثاً، بناء البيت ودعاء إبراهيم وإسماعيل أن يفيض الله الرزق على أهل الحرم، وأن يبعث فيهم رسولا منهم؛

ولعل القارىء يتساءل: هل إبراهيم هو أول من بنى البيت أم أنه كان مبنيًا قبل ذلك؟

إننا حينما نتأمل فى الآية التى تتحدث عن قيام إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت نراها تقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^(١) ورفع القواعد يفيد غالباً أنها كانت موجودة ثم زاد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - عليها، ويحتمل أن المقصود بناؤها من الأساس، ولكننا نرجح الأول، لأن الله - سبحانه - يقول فى آية أخرى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢) فيه آية بنتت مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حجج البيت من استطاع إليه سبيلاً^(٣)، فالنص على أن البيت هو أول بيت وضع للناس يعنى أنه كان موجوداً قبل ذلك، لأن عبادة الله فى الأرض منذ بدء الخليقة، وهل من المعقول أن لا يكون هناك بيوت لعبادة الله قبل أن يبنى إبراهيم وإسماعيل البيت؟ إن تعبير القرآن بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ يؤكد أنه كان موجوداً قبل أن يرفع إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قواعده، ويرجع هذا الآثار التى جاءت تقول: إن الأنبياء والملائكة والجن حجوا البيت من قبل. أما الآيات التى تدل على رفع إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لقواعد البيت ففىما يلى نصها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَتُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٦).

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦، ٩٧.

(٣) البقرة، الآيات: ١٢٧ - ١٢٩.

وفى هذه الآيات الكريمة إشارة إلى الحديث الذى ورد عن رسول الله ﷺ والذى يقول: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِي؟ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وبشارةُ أَخِي عِيسَى...» فإن قوله ﷺ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ» إشارة إلى ما جاء فى الآية الكريمة: ﴿وَأَنْعَشَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وكما استجاب الله دعوة إبراهيم وإسماعيل بالنسبة لرسول الله فقد استجاب كذلك بالنسبة للامة المسلمة التى دَعَا الله أن تكون فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (١). واما بشارة عيسى فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ رَسُولًا يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَخَذَ...﴾ (٢).

رابعاً: الأذان بالحج،

بناء البيت فى تلك البقعة المباركة، ودعوة أبى الانبياء وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله رب العالمين، وأن يبعث الله فيهم رسولا منهم فى وقت لم يكن هناك قاطن، ولا مقيم بذلك الوادى الموصوف فى القرآن الكريم بأنه غير ذى ررع، نقول: إن ذلك إشارة إلى المستقبل بأن هذه البقعة ستكون مهوى أفئدة الملايين من البشر فى مشارق الأرض ومغاربها، وهذه ايضا دعوة أخرى من أبى الانبياء إلى جانب رزقهم من الثمرات، حيث قال: ﴿فَأَجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣).

وهكذا تتجه الملايين كل يوم خمس مرات وجهة هذا البيت الذى بناه أبو الانبياء وابنه - عليهما السلام - وتأتيه من كل فج عميق للحج والعمرة، وفى أذان إبراهيم - عليه السلام - بالحج يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٢٨

(٢) سورة الصف، من الآية: ٦

(٣) سورة إبراهيم، من الآية: ٢٧

وَالرُّكَّعَ الشُّجُودَ ﴿٢٦﴾ وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَيْجِ بِأَتَوْكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن ثمرات الأرض من كل جوانبها تجبى إلى هذه البلاد التى شرفها الله سبحانه ببيته المحرم، ومبعث نبيه محمد ﷺ فقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا أمر يللمسه كل من أقام بهذه البلاد، سواء كان من سكانها أو القادمين إليها، وصدق الله العظيم، وهو يقول فى معرض الامتنان على قريش: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩).

والى هنا نكون قد استوعبنا المراحل التى تتعلق بإبراهيم نفسه وما يترتب عليها فى المستقبل الذى سيدوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقبل أن نتناول مراحل الفترة التى باشر فيها الدعوة مع قومه نشير إلى مرحلة متميزة، وهى المتعلقة بالبشارة بابنه إسحاق - عليه السلام - واستقبال روجه هذه البشارة بالعجب والدهشة؛ لأن زمن الإنجاب للمعتاد قد ولى.

خامسا، حوار إبراهيم مع ضيوفه من الملائكة،

وهذه المرحلة تشير إلى نعمة من نعم الله سبحانه على أبى الانبياء إبراهيم؛ حيث أخذ فى التنفيذ العملى للتضحية بابنه إسماعيل الذى رزقه على كبر استجابة لأمر الله سبحانه، فمن الله عليه بأن يهدى ابنه بذبح عظيم، وبشره بابن آخر هو إسحاق؛ لأنه كان من المحسنين، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٥﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَإِذٍ يَعْبُدُ سَمِيرِينَ ﴿١٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا

(١) الحج، الآيات: ٢٦ - ٢٩.

(٢) القصص، من الآية: ٥٧.

تَخَفَ وَيَسْرُوهُ يُغْلِمُ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾
 قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاخْطُبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
 قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
 لِلْمُسْرِفِينَ ﴿١﴾.

وفيما يلي المراحل التي تحكى مسيرة الدعوة إلى الله مع قومه .

سادسا، التلطف مع أبيه، ومحاولة لفت نظره إلى بطلان اتخاذ الأصنام آلهة،

وقد جاء ذلك فى عدة آيات من سورة مريم بدا فيها اهتمام إبراهيم - عليه السلام - بهداية أبيه، وحرصه على نجاته من العذاب الذى يحل بمن يشرك بالله رب العالمين، فى أسلوب يستدرّ كل معانى المودة والقربى التى تربط الابن بأبيه .

يقول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
 لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ
 يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
 عَصِيًّا ﴿٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٥﴾ قَالَ
 أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ عَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ
 عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٧﴾ وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٨﴾﴾ (٢).

وهنا نرى إبراهيم - عليه السلام - قد استعمل المنهج العاطفى فى دعوته لأبيه
 وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكلى الترغيب والترهيب، فالترغيب فى قوله:
 ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ والترهيب فى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ
 الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ وحتى بعد أن هدده أبوه بالرجم إن لم ينته عن

(١) الذاريات، الآيات: ٢٤ - ٣٤

(٢) مريم، الآيات: ٤١ - ٤٨

دعوته، فإنه أيضا تابع الموعظة الحسنة في قوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ وهذا المسلك الحكيم الرفيق يعطى الدعاة نموذجاً يهتدون به في دعوتهم، وينسجون على منواله وهم يتعاملون مع المدعويين، فيقابلون الغلظة منهم باللين، والتهديد بالإعلان عن الرغبة في نجاتهم وجلب الخير إليهم، وهذا هو مسلك المؤمنين الذين مدحهم الله من أجله في قوله - سبحانه -: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ (١).

سابعاً: التدرج مع قومه في الحوار الهادي،

مع لفت أنظارهم في رفق ولين إلى بطلان اتخاذ آلهة من دون الله أو ثبات كانت أو كواكب، ثم الانتهاء معهم إلى أنها مخلوقات لله الجدير وحده بالعبادة. والدليل على ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٦) ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِضُ مَا يَرَى ۖ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢).

وفي هذه المرحلة نجد في الآيات الكريمة المنهج العقلي واضحاً، وذلك في محاولة إبراهيم - عليه السلام - الحوار مع عباد الكواكب دافعاً لهم أن يستعملوا عقولهم في التفكير فيما يجب أن يكون عليه الإله الحق من الوجود الدائم الذي لا يعتريه أفول ولا مغيب، أما الأساليب فإننا نرى بوضوح أسلوب الحوار والمحاكمات العقلية في هذه الآيات.

(١) الحج، الآية: ٢٤

(٢) الأنعام، الآيات: ٧٥ - ٧٩

ثامنا: إظهار عجز آلهة قوم إبراهيم:

وذلك بالكشف عن عجزها وعدم قدرتها على إجابة من يدعوها، وعدم قدرتها على النفع والضرر، ثم التعقيب على ذلك ببيان صفات الإله الحق الجدير بالعبادة، والتوجه إليه سبحانه بقضاء ما يحتاجه العباد، وفي الوقت نفسه يحاول إيقاظ عقولهم الغافلة لعلها ترى الحق فتتهدى إليه وتقتضى في طريق الرشاد، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ بَأْسَ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۚ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كِفَافٍ ۖ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرًّا ۖ إِذْ تَدْعُونَ ۚ ۚ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۚ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۚ قَالِ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۚ ۚ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۚ ۚ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۚ ۚ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۚ ۚ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۚ ۚ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۚ ۚ وَالَّذِي يُسَيِّئُ شَأْنِي ثُمَّ يُخَيِّبُنِي ۚ ۚ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۚ ۚ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ۚ ۚ وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ۚ ۚ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۚ ۚ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۚ ۚ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ ۚ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۚ ۚ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۚ ۚ (١)﴾.

والتأمل في هذه الآيات الكريمات يرى أن المنهج العقلي سائد فيها، وذلك في سؤال إبراهيم قومه عن آلهتهم وعجزها عن الإجابة، وعدم قدرتها على الضرر والنفع، والاستدلال على أحقية الله سبحانه بالعبادة بأنه هو الرازق للطعام والشراب، والقادر على الإصابة بالمرض والشفاء منه، وواهب الحياة وسالها بالموت، وهذا كله مما يدفع العقول إلى التفكير والتأمل، وهو كذلك يستعمل أسلوب الحوار والمحاكمات العقلية، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة في موضع آخر من سورة العنكبوت حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ ۚ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ

(١) الشعراء، الآيات: ٦٩ - ٨٩

رِزْقًا فَاذْبَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ كَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَسْمِعُ بِمُعْجِزَاتِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

ونرى أيضا هنا أن المنهج العقلي واضح في هذه الآيات الكريمات، حيث يلفت إبراهيم - عليه السلام - قومه إلى عجز آلهتهم عن رزقهم، وأن الرازق هو الله الحقيق بالعبادة، ثم يتابع استنفار قواهم العقلية على التفكير في بدء الخلق وإعادته، ثم الاعتبار بالسير في جنبات الأرض ليدركوا في جلاء قدرة الله سبحانه، ويتبع ذلك بالوعيد بالعذاب الشديد للكافرين.

وكان المنتظر من قوم إبراهيم - عليه السلام - أن يستعملوا عقولهم، ويتنفعوا بمحاولة أبى الأنبياء - عليه السلام - أن يدفعهم إلى التفكير بعدما قدم لهم من الأدلة القاطعة على عجز آلهتهم فيدركوا أنها لا تصلح أن تعبد، ولا يليق بذوى العقول المستنيرة أن يخضعوا لأصنام لا تضر ولا تنفع، ولكنهم لما لم ينتفعوا بهذه المحاولة، وتحجرت عقولهم فلم تفكر، ولم يكن لهم من حجة تبرر صنيعهم غير المستقيم تعلقوا بأنهم يتابعون آباءهم فيما كانوا يعتقدون. انتقل إبراهيم - عليه السلام - إلى مرحلة ثالثة فيها مواجهة.

(١) العنكبوت، الآيات: ١٦ - ٢٥

تاسعا: مواجهة قومه بالإعلان عن بطلان عقيدتهم، والسخرية من آلهتهم التي يعبدونها:

وذلك بتقديم الدليل العملي على عجزها في الدفاع عن أنفسها لعلهم حينما يرون ذلك يفيقون من غفلتهم، وكان ذلك من خلال حوار ساخن أسكتهم فيه إبراهيم ووسمهم وآباءهم بالضلال في عقائدهم، وإزاء عجزهم عن إيراد الدليل على صحة ما يعكفون عليه لجأوا إلى العنف والبطش، فأعدوا العدة للتخلص منه بإلقائه في النار التي نجاه الله منها؛ ليكون دليلا آخر محسوسا لعلهم يعودون إلى رشدهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة وما واكبها من أحداث في سورتين، هما: الأنبياء، والصافات.

أما آيات الأنبياء فتقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ٥٥ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِفُونَ ٥٦﴾ قَالَوَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا مَالِهَا عَلَيْكُم ٥٧ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ٥٩﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٦٠﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ٦١﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا لَّا كَبِيرًا ٦٢﴾ لَمْ يَلْعَلْنَاهُ إِلَهُو يُرْجَعُونَ ٦٣﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٦٤﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ٦٥﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦٦﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ٦٧﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَاوَوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٦٨﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ٦٩﴾ ثُمَّ نَكْسُوهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ٧٠﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ٧١﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٢﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٧٣﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ٧٤﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ٧٧﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧٨﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ
وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿١﴾.

ونرى في هذه الآيات المنهج العقلى وأسلوب الحوار والمحاكمات العقلية التى
استكنهم بها، وإن كانت الآيات تشير إلى أنهم حصل لهم صحة لكنهم لم يلبثوا
أن عادوا إلى الغفلة والضلال، وقد عبر عنهما القرآن بقوله: ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى
رُءُوسِهِمْ ﴾.

ونجد أيضا أسلوب القوة قد استعمل فى هذه الآيات بعد أن أغلقوا عقولهم
عن التفكير حينما كسر إبراهيم - عليه السلام - أصنامهم، ويؤخذ من الآيات
أيضا استعمال المنهج الحسى مع أسلوب القوة، وذلك فى الآية الكريمة:
﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا لَا كَبِيرَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴾.

وأما آيات سورة الصافات فتقول: ﴿ وَاتَّكَمْنَا مِنْ شِيعَانٍ لَّا بُرْهَانَ لَهُمَا ﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُلَّاءِ الْهَيْئَةِ دُونَ اللَّهِ تَرْيَدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَتَنَظَّرْنَا نَظْرَةً فِي الشُّجُورِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنُفِخَ فِي سُوفِهِمْ فَفُتِحُوا ﴿٩٠﴾ فَنَادَى الْأُلَٰهَ الْإِلَٰهَ الْإِلَٰهِيَّهِمْ فَقَالَ الْأَلَتَانِ كُفُّوا أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمُ مَظْهَرًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا
إِلَيْهِ يَرْفِقُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا
فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي
سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيِّ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾.

ونجد هذه الآيات الكريمات قد امتزج فيها المنهج الحسى بالمنهج العقلى
وأسلوب الحوار، إلى جانب أسلوب القوة، ويؤخذ المنهج الحسى وأسلوب القوة
من قوله تعالى: ﴿ فَرَأَى الْأُلَٰهَ الْإِلَٰهِيَّهِمْ فَقَالَ الْأَلَتَانِ كُفُّوا أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمُ
مَظْهَرًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ وَالسخرية من هذه الآلهة واضحة فى قوله: ﴿ الْأَلَتَانِ كُفُّوا أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾.

(١) الأنبياء، الآيات: ٥١ - ٧٣

(٢) الصافات، الآيات: ٨٣ - ١٠١

ويؤخذ المنهج العقلي وأسلوب الحوار من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾.

وعلى الرغم من هذه الآيات الواضحات، والدلائل القاطعة من أن الإله الحق هو الله - سبحانه - الذي يدعو إليه أبو الأنبياء، والذي بدا من قدرته وسلطانه ما رأى الناس جميعا من إبطال خاصية النار وسلبها القدرة على الإحراق، ونجاة إبراهيم - عليه السلام - منها، وكان هذا داعيا إلى أن ينصرف الناس عن كل دعوة تدعو إلى عبادة غير الله، إلا أن الغرور قد حال بين بعض الناس وبين الانصياع للحق، فلا زال يوجد من يزعم أنه إله يدعو الناس إلى عبادته والخضوع له، وكان لابد لأبي الأنبياء - عليه السلام - أن يواجهه في حزم وعزم هذا الانحراف السافر، وذلك الادعاء الباطل، وأن يتحدى هذا الغرور حتى يقضى عليه، فكانت المرحلة التالية من مراحل دعوته - عليه السلام -.

عاشرا: تتحدى مدعى الألوهية وإفحامه.

والى هذه المرحلة تشير الآية الكريمة من سورة البقرة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

والمنهج العقلي وأسلوب الحوار والجدال واضحان في هذه الآية الكريمة، وهنا أمران نحب أن نلفت الدعاة إليهما؛ ليتفهما بهذا المنهج القرآني السديد، أما الأمر الأول فيتمثل في مغالطة مدعى الألوهية حينما زعم أنه يحيى ويميت، وهنا أدرك أبو الأنبياء - عليه السلام - أن بذل الجهد في محاولة كشف كذب ادعائه سيعطى فرصة للمماطلة والتلبيس على البسطاء؛ ولذلك أعرض عن ذلك، واتجه مباشرة إلى الأمر الثاني الذي أصاب مدعى الألوهية بمثل الصاعقة فلم يُحر جوابا وبدا في صورة مزرية عبرت عنها الكلمة القرآنية ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ وما فيها من إحياءات.

(١) البقرة، الآية: ٢٥٨

قد رأينا هذه الرحلة الممتدة التي قطعها أبو الأنبياء - عليه السلام - في الدعوة إلى الله - سبحانه - والإعداد لمقدم النبي الخاتم والامة المسلمة، ووقفنا على التضحيات العظام التي بذلها راضيا مستجيبا لأمر الله تعالى؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم الدعوة إلى الاقتداء به والسير على منهجه، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرُ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ۝﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ۝﴾ (١).

الدروس المستفادة من دعوة إبراهيم عليه السلام

- ١ - التلطف فى دعوة الكبار والآباء .
- ٢ - محاولة لفت الانتظار إلى الحق فى رفق ولين .
- ٣ - التدرج فى كشف العقائد الباطلة بعرض الأدلة القاطعة على بطلانها، وبذل الوسع فى إقناع المدعوين .
- ٤ - الانتقال إلى السخرية والمواجهة حينما يتبين إصرار المدعوين على باطلهم .
- ٥ - المثابرة ومتابعة محاولة الإقناع بتبنى الوسائل المشروعة والممكنة .
- ٦ - تحدى من يصبر على الباطل ، وإظهار كذب دعواه أمام الآخرين .
- ٧ - الصبر على مواجهة الصعوبات مهما عظمت .
- ٨ - الاستعداد للتضحية فى سبيل الدعوة إلى الحق .
- ٩ - الاستعداد للابتلاء والرضا بالاغتراب ومفارقة الأحباب استجابة لأمر الله تعالى .

(١) المتحفة، الآيات: ٤ - ٦

دعوة كلیم الله موسى عليه السلام

كلیم الله موسى بن عمران - عليه السلام - أحد أولى العزم من الرسل، وقد ورد اسمه في القرآن الكريم ١٣٦ مرة، وترددت قصته - عليه السلام - في أربع وثلاثين سورة، ولم يحظ نبی من الأنبياء - عليهم السلام - بالحديث المستفيض عنه وعن قومه والاحداث التي جرت له ولهم مثلما حظى موسى - عليه السلام - .

١- ظروف ولادة موسى وأسبابها:

وقد ولد في ظروف عصيبة؛ إذ كانت أسرته تعيش في مصر كإحدى أسر بني إسرائيل الذين أقاموا في مصر منذ أيام يوسف - عليه السلام - حين قال لإخوته: ﴿أَذْهَبُوا بِمِصْرَىٰ هٰذَا فَإِنِّي عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِبْرٍ وَآتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١).

ولكنهم مع مضي الزمن وتغير الحكام تعرضوا للاضطهاد والتضييق من فرعون وقومه، وبلغت الشدة ذروتها حينما قرر فرعون أن يقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل، وقد جاءت الإشارة إلى تذييع فرعون للذكور من مواليد بني إسرائيل في ثلاث سور من القرآن الكريم: في سورة البقرة حيث يقول الله تعالى عمتنا عليهم: ﴿وَلَمَّا بَجَحْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢).

(١) يوسف، الآية: ٩٣

(٢) البقرة، الآية: ٤٩

وفى سورة إبراهيم حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْخِلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَسَتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١).

وفى سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢)، وقد ذكر الكاتبون فى قصص الأنبياء: أن فرعون اتخذ هذا الموقف الشنيع؛ لأنه ترمى إلى سمعه أن بنى إسرائيل كانوا يتحدثون فيما بينهم عما ينسب إلى إبراهيم - عليه السلام - أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وأن الإسرائيليين كانوا يقولون ذلك على الملأ، فتناقلها القبط وأوصلوها إلى فرعون (٣). وهناك رواية أخرى تنسب إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - وابن مسعود - رضى الله عنه - تقول: إن فرعون رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر، وجميع القبط، ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه؛ فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك الإناث (٤).

ويقال أيضا: إن فرعون لما فعل ذلك قيل له: إن بنى إسرائيل سيفنون بقتل المواليد الذكور وموت الكبار، وحيث لا يوجد من يقوم بالأعمال التى يؤدونها، فاتخذ قرارا آخر بأن يقتل مواليد عام ويترك مواليد عام، فولد هارون فى العام الذى لم يكن فيه قتل، وحملت أم موسى به وحن مولده فى العام الذى سيقتل فيه المواليد من الذكور، فتملكها الحزن والخوف وبخاصة بعد أن وضعت موسى - عليه السلام - فأوحى الله إليها وحي إلهام أن ترضعه، فإذا خافت أن ينكشف

(١) إبراهيم، الآية: ٦

(٢) القصص، الآية: ٤

(٣، ٤) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ج ٢ ص ٤، ٥ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد.

وفي تصوير هذه الظروف يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذْ أَخْفَتْ عَلَيْهِ فَالْتَبَسَ فِي أَلْيَمِهِ وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْنَا ۖ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ (١)﴾.

وصنعت أم موسى ما ألهمته فألقت ابنها فى النهر، وحمله التيار حتى أوفى به على قصر فرعون، ولنا أن نتصور مدى القلق الذى كان يستبد بقلب أم موسى وهى تلقى به إلى المجهول، حتى إنها أوشكت أن تخبر عن حالها لولا أن أفرغ الله عليها من الصبر ما جعلها تثبت، وساعدها على ذلك الأمل الذى كان يتردد فى قلبها لإلهام الله لها أن ابنها سيرد إليها، وسيكون له شأن أى شأن، وعلى الجانب الآخر فقد التقط آل فرعون الصندوق وحملوه إلى امرأة فرعون التى القى الله محبة الغلام فى قلبها، وأخذت تحاور زوجها لتقنعه أن يبقى عليه فلا يقتله، لكى يكون لهما قرة عين، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَالْقَظْفَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ رِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ كَانُوا أَخْطِيَاءَ﴾ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ لَا نَقْتُلُوهَ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أَمْرَ مُوسَى فَرِحْنَا بِكَادَتِ السُّبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

(١) القصص، الآية: ٧

(٢) القصص، الآيات ٧ - ١٠

(٣) طه، الآيات: ٢٧ - ٢٩

إرادة الله ويتحقق أمره، ويتربى موسى على يدي عدوه الذى قتل المئات من
الولدان ليقتله قيمن يقتل، ولكن إرادة الله لا غالب لها، ولا يغنى حذر من قدر.
وقبل أن تنتقل إلى المرحلة التالية نقف عند قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ
مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ونسأل: ما المقصود من كلمة (أوحينا) هل يقصد بها
الوحي الذى يأتى الأنبياء؟ أم ماذا؟

يذهب العلماء جميعا إلا ابن حزم إلى أن المقصود الإلهام؛ لأن من شره
النبوّة المذكورة، ولكن ابن حزم التزاما بمذهبه الذى يحمل الألفاظ على ظاهرها
يقول: إنه الوحي الذى يجرى للأنبياء، وهو لهذا يقول: «إن أم موسى وأم عيسى
وامرأة فرعون كن نبيات».

٣- تحقيق وعد الله بعودة موسى إلى أمه بعد أن حرم عليه المراضع؛

بدأت حركة نشطة فى قصر فرعون تعمل على تأمين احتياجات الوافد الجديد،
الذى ألقاه اليم إليهم، بعد أن أقنعت امرأة فرعون زوجها باتخاذ ولد، ولكن
القلق بدأ يلقي بظلاله على القائمين على أمر الوليد، والمسئولين عن رعايته؛ لأنه
رفض كل المراضع التى عرضت عليه، وخشى على حياة الوليد إذا لم توجد
وسيلة تجعله يقبل على الرضاعة كما يفعل كل الأطفال الرضع، وبينما يسعى كل
من فى قصر فرعون من المكلفين بأمر الوليد إلى البحث عن حل لهذا الوضع
المحير، تتقدم أخت موسى فتعرض عليهم أن تدلهم على من يكفله لهم بعد أن
وجهتها أمها لتقص أخبار أخيها، وما كادت أخت موسى تتقدم بهذا العرض حتى
جاء القبول به على جناح السرعة، وجاءت أم موسى لتتولى إرضاعه، ولما طلب
إليها أن تظل فى قصر فرعون لتقوم بشئون الرضيع اعتذرت بارتباطها بأمر بيتها،
وانتهى الأمر بأن يذهب موسى إلى أمه كل يوم لتراه وترعاه وترضعه وتعلم أن
وعد الله حق لا ريب فيه، وعن هذه الظروف يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتْ
لِأُخْتِي قُصِّيهِ قَبَضْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ

مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدَتْهُ
إِلَىٰ أُهْمِهِمْ ۚ فَتَقَرَّعَيْنَاهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

٤ - موسى في بيت فرعون:

قضى موسى - عليه السلام - سنوات طفولته وصباه وشبابه في بيت فرعون، ولم تمض هذه السنوات بدون مفاجآت، فقد ذكرت كتب قصص الأنبياء أن موسى - عليه السلام - وهو طفل صغير عبث بلحية فرعون، فهاج غضبه لذلك وعزم على قتله لولا أن تدخلت امرأة فرعون قائلة: إنه طفل صغير لا يعقل، ولا يقصد الإساءة إلى فرعون، ودلت على ذلك بأن أمرت أن يقدم لموسى جمره ودره، وأنه لا يفرق بين هذه وتلك، وقد ألهمه الله أن يأخذ الجمره ويلقيها في فمه، عند ذلك تراجع فرعون عن عزمه على قتله، وهكذا أراد الله لموسى أن ينجو من القتل وأن يبلغ الكتاب أجله، وقيل: إن دعاء موسى ربه لما جاءته النبوة أن يحل عقدة من لسانه بسبب ما أصاب لسانه وهو صغير من هذه الجمره.

ومضت السنون بموسى حتى بلغ الشباب، وعرف أنه إسرائيلي وليس قبطيا، وتناقل الناس هذا الأمر خارج قصر فرعون حتى بات معروفا للإسرائيليين وأهل مصر على السواء، وبينما موسى - عليه السلام - يجتاز ببعض مناطق المدينة إذا به يبصر اثنين يتقاتلان، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي، فلما أبصر به الإسرائيلي استغاث به، فوكر القبطي وكزة أدت إلى موته، وتكرر هذا الحدث في اليوم التالي، وإذا بنفس الرجل الإسرائيلي يتقاتل مع رجل آخر، وأدرك موسى - عليه السلام - أن الرجل عامل من عوامل الشغب وعدم الاستقرار، فقال له: إنك لغوى مبین، وفي هذا الموقف عرف أن موسى هو قاتل الرجل الذي مات بالأمس، وانتشر الأمر بين الناس، وقرر رجال فرعون أن يقتلوا موسى، حتى جاء من ينصحه بالخروج والنجاة بنفسه، وفي تصوير هذه الأحداث يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

(١) القصص، الآيات: ١١ - ١٣

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوٍّ فَأَسْتَغْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ تُفَشِّلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَلَأَ بِأَتَمِرُونَ بِكَ لِيُقَتْلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

٥. الخروج من مصر إلى أرض مدين:

أحسن موسى - عليه السلام - بالخطر يتهدد حياته بعدما استمع إلى نصيحة ذلك القادم من أقصى المدينة وأخبره بما يأتمر به رجال فرعون، وسأل الله أن ينجيه من هؤلاء الظالمين، فقد انكشف الأمر، وصرحت العداوة بينه وبين رجال فرعون، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

وفي هذه المرحلة ودع موسى - عليه السلام - فترة الراحة والحياة الآمنة، وبدأ فترة المتاعب والمصاعب والخوف والمطاردة والغناء الشديد الذي لاقاه في تلك الرحلة المضنية التي قطعها مشيا على الاقدام بدون طعام ولا شراب، ولا مأوى،

(١) القصص، الآيات: ١٤ - ٢١

(٢) القصص، الآيات: ٢١ - ٢٤

وقد يمكن تصور مدى المتاعب التي لاقاها نبي الله موسى حينما نحاول أن نتعرف على موقع أرض مدين التي أشارت إليها الآيات، إن موسى - عليه السلام - خرج من عاصمة مصر التي كانت تقع آنذاك جنوب القاهرة الحالية متجها نحو الشرق مجتازا الصحراء الممتدة من شرق القاهرة إلى السويس مندفعاً في سيناء التي لم يكن يفصلها عن بقية أرض مصر آنذاك فاصل؛ إذ كانت الأرض ممتدة متصلة حتى أقصى الجنوب من جزيرة العرب، ويغلب على الظن أن أرض مدين كانت تقع في سيناء على مقربة من فلسطين والأردن، وأن أرض سيناء كانت مسرحاً لما جرى بعد ذلك من أحداث إلى أن رجع موسى إلى مصر داعياً فرعون إلى الإيمان، وكذلك بعد أن خرج من مصر ومعه بنو إسرائيل، وفيها كتب عليهم التيه أربعين سنة لما رفضوا دعوة موسى إلى دخول الأرض المقدسة خشية من القوم الجبارين الذين يسكنونها، والتي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَذَنِّبُوا خِيسِينَ﴾ ١١٠ ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ١١١ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن نَّمُوتَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمُ عَلَيْهِم بَشِيرٌ فَنَنْقَلِبْكُمْ عَلَيْهِمُ الْآثَارَ فَخَالِفْتُمْ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِذُونَ﴾ ١١٢ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (١)

٦- لقاء موسى بشعيب عليهما السلام،

لما عادت ابتنا شعيب على غير العادة مبكرتين لفت ذلك انتباه أبيهما، فقصتا عليه ما وقع عند البئر، وسقيا موسى لهما، واقترحت إحداهما على أبيها أن يستأجره؛ لأن فيه صفتين توهلانه للقيام بهذه المهمة على خير وجه، وهما القوة

(١) المائدة، الآيات: ٢١ - ٢٦

والأمانة، ووافق الشيخ على اقتراح ابنته، وبعث بها لتدعوه إلى لقائه، وعند لقائهما قصّ موسى - عليه السلام - على الشيخ قصة مطاردة قوم فرعون له، فطمأنه وأخبره أنه صار في مكان آمن من أن يناله أذى من هؤلاء القوم الظالمين، وعرض عليه أن يتزوج إحدى ابنتيه على أن يقوم بالعمل له ثمانى سنوات أو عشرا إن أراد، وبدأ موسى - عليه السلام - حياة آمنة مطمئنة مع ذلك الشيخ الكبير، وقد ذهبنا إلى أن هذا الشيخ الكبير هو شعيب - عليه السلام - تبعنا لما قال به أكثرية العلماء؛ ولكن هناك من يقول: إن الشيخ لم يكن شعيبا؛ لأن شعيبا كان قبل ذلك بزمن بعيد، وإنما هو من قومه إما ابن أخيه أو ابن عمه، ويورد العلماء هنا تفصيلا للقاء خلاصته أن الشيخ عرض على موسى الطعام فامتنع خشية أن يكون ذلك عوضا عما قام به من عمل من أعمال المروءة، وهو إنما أراد بما صنع وجه الله، فأخبره الشيخ أن هذه عادته وعادة آبائه من قبله، وفي تصوير أحداث هذه المرحلة يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ آتِي يَدْعُوكَ لِتَجْزِيَنَا أَجْرَ مَا سَفَقْتِ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتَفْجَرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَ الْأَمِينُ ۝١٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ يَتْنِي وَيَتْنُكَ أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝١٨﴾ (١).

وهنا نرى أن أجر عمل موسى هذه السنوات كان مهرا نزوجته، فهل يظل هذا أمرا معمولاً به في شرعنا؟ إننا حينما نستعرض بعض الأحداث التي وقعت على عهد رسول الله ﷺ نرى أن رجلا أراد أن يتزوج ولم يكن عنده ما يتزوج به، وأن رسول الله ﷺ لما عرف أنه كان يحفظ شيئا من القرآن روجه منها على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن الكريم. وهذا ليس شيئا مقبوضا، ويعنى أن أجر

(١) القصص، الآيات: ٢٥ - ٢٨

العمل يصح أن يكون مهرا في شرعنا، والقاعدة الفقهية تقول: شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه.

٧. اختيار الله لموسى ووحية له إيذانا ببداية النبوة،

بعد أن قضى موسى - عليه السلام - فترة العمل التي اتفق عليها أصحاب أهله وخرج. وقد سئل رسول الله ﷺ أى الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قال: «أوفاهما» ويفهم من آيات القرآن الكريم أن موسى - عليه السلام - لما خرج كان الوقت شتاء، وأن الليل أدركه في الطريق؛ فلذلك حاول أن يجد لأهله جذوة من النار يصطلون بها، أو أن يكشف له ضوء النار معالم الطريق، وقد تناول القرآن الكريم مشاهد هذه الرحلة في سورتين، هما: القصص، وطه، أما آيات القصص فتقول: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِلَىٰ آلِهَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانًا وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْشِي عَلَىٰ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴿١٢﴾﴾ (١).

وأما آيات سورة طه فتقول: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ هَدَىٰ ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْشِيَ ﴿٣﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٤﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿٥﴾ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٦﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٧﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٨﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْشِيَ ﴿٩﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مِشَارِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٠﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْشِيَ ﴿١١﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٢﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

(١) القصص، الآيات: ٢٩ - ٣١

وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكَ فَتُخْرِجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ۖ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْكُفْرَى ۖ (١). وبعد قراءة هذه الآيات الكريمات يتبادر إلى الذهن تساؤل: أين كان مسرح هذه الأحداث؟ وأين يقع الوادى الأيمن؟ والوادى المقدس طوى؟ وهل الوادى الأيمن والوادى المقدس طوى اسمان لشيء واحد؟ أم هما مكانان؟ والذي يفهم من الآيات أنهما اسم لمكان واحد، ويغلب على الظن أن ذلك المكان موقعه فى أرض سيناء، ولكن ليس بأيدينا دليل قاطع على ذلك.

وإذا أردنا أن نتعرف على المناهج التى استعملت فى المراحل التى عرضناها حتى الآن من حياة موسى - عليه السلام - فإننا نرى أنها ربانية المصدر، وأنها تدخل فى تقسيم المناهج من حيث مصدرها؛ ولهذا فهى مناهج ربانية معصومة عن الخطأ، وهى أصل لغيرها؛ لأنها من لدن عليم حكيم سبحانه وتعالى.

٨ - دعاء موسى - عليه السلام - ربه أن يؤيده ببعض الوسائل الذاتية ويشد عضده بأخيه هارون عليه السلام؛

أدرك نبي الله موسى - عليه السلام - عظم المسئولية الملقاة على عاتقه فاتجه إليه - سبحانه - بالدعاء أن يشرح صدره للنهوض بهذه المسئولية، وأن يمنحه القدرة على البيان للتعبير المقنع عما يريد إبلاغه من الدعوة إلى الله سبحانه، وأن يجعل الأمر سهلاً عليه، وأن يكون له معين ووزير من أهله هو أخوه هارون - عليه السلام - وفى اتجاه موسى - عليه السلام - بهذه الدعوات إلى الله سبحانه تعليم للدعاة أن يطلبوا العون من الله، وأن يمنحهم الصدق فى القول والإخلاص فى العمل، يقول الله - سبحانه - على لسان موسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۖ هَارُونَ أَخِي ۖ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۖ وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي ۖ كُنْ نَصِيرًا ۖ وَتَذَكَّرْ كَثِيرًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ۖ﴾ (٢).

(١) طه، الآيات: ٩ - ٢٣

(٢) طه، الآيات: ٢٥ - ٣٦

٩. أمر الله موسى وهارون أن يتجها إلى فرعون،

لما أوحى الله لموسى أنه اختاره للنبوّة، ودعا موسى ربه أن يؤيده بأخيه، واستجاب له، أمرهما أن يذهبا إلى فرعون لعله يعود عن طغيانه، وأوصاهما بأن تكون دعوتهما إياه بالرفق واللين، وفي هذا تعليم للدعاة كي يسلكوا سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، وأن يكون الرفق هو السمة التي يتخلق بها الدعاة، «لأن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى أخلاق النبي ﷺ التي جمعت حوله القلوب، وفي مقدمتها الرحمة واللين والسلامة من الفظاظة والغلظة، يقول الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١) والدعاة في حاجة ماسة إلى أن يتعلموا من حياة الأنبياء ما يساعدهم على النجاح في دعوتهم، فإن الله تعالى لم يذكر لنا قصصهم في القرآن الكريم للمتعة والتسلية، وإنما ذكرها للعبرة والعظة كما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

وعلى هذا المنوال أمر الله نبيه موسى وهارون أن يدعوا فرعون، يقول الله تعالى: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿١١﴾ ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿١٢﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذَكَّارٍ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرْمِي﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ ﴿١٦﴾ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١٧﴾.

(١) آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) يوسف، من الآية: ١١١.

(٣) طه، الآيات: ٤٢ - ٤٨.

ونلاحظ أن المنهج المستعمل فى هذه الآيات هو المنهج العاطفى، وأن الأسلوب هو أسلوب الموعظة الحسنة فى شكل الترهيب والترغيب.

على أن القرآن الكريم قد أشار إلى أمر الله - سبحانه - لموسى أن يتوجه إلى فرعون فى سورة الشعراء فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَنَبَّؤُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿١٤﴾ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ وَلَا يَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا فَادْعِ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾ فَأَتَىٰ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾﴾ (١). وكذلك جاءت الإشارة إلى ذلك فى سورة القصص إجمالاً.

١٠. اللقاء بين موسى - عليه السلام - وفرعون، وما دار بينهما من حوار

نرى فرعون فى هذه المرحلة ينكر على موسى أن يتوجه إليه بالدعوة إلى الله، ويذكره بتربيته وليده فى بيته، ويحاول أن يتهم موسى تارة بالسحر وتارة بالجنون؛ ليصرف الملا عن الاستماع إليه، ويجرّ موسى - عليه السلام - إلى قضايا فرعية تصرفه عن الدعوة إلى عبادة الله وترك ما سواه، ولكن موسى - عليه السلام - يواجه هذه المحاولات بالحديث عن الإله الذى له مافى السموات وما فى الأرض، الجدير بأن يعبد وحده. ويدرك فرعون ومن معه أنهم مخلوقون لله رب العالمين، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الحوار تفصيلاً فى سورتي طه والشعراء، تقول آيات سورة طه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَىٰ ﴿١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٢﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٣﴾ قَالَ عَلَّمَاهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَقَى ﴿٥﴾ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

(١) الشعراء، الآيات: ١٠ - ١٧

لَأُولَىٰ الشَّعْرِ ﴿٥٤﴾ وَمِنَّا خَلَقْنَاهُمْ فِيهَا نَعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَنَّ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأَيِّتَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴿٥٨﴾ (١).

ونلاحظ أن الآيات الأولى من هذا الحوار اتخذت المنهج العقلي وأسلوب المحاكمات العقلية، ثم أخذت تمزج بين المنهج العقلي والمنهج العاطفي في الآيات التالية ابتداء من قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَآَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَحْتَ الشَّجَرِ﴾ مستعملاً أسلوب الموعظة الحسنة في شكل التذكير بالنعم.

أما آيات سورة الشعراء فقد بدأها فرعون بتذكير موسى - عليه السلام - بأيام طفولته وصباه التي قضاها في بيته، وإقدامه على قتل رجل مصري، ثم تابع الحوار على النمط الذي سبق، إلا أنه حاول أن يشير الملاء من قومه ضد موسى متهماً إياه بالجنون، تقول الآيات: ﴿قَالَ أَتَزَعُكَ فَيَنَالُ لَدَا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرَاءِ سِينٍ ﴿١٨٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ أَنَّى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٩٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿١٩٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٩٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٩٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرَ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوفِينَ ﴿١٩٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠٢﴾ وَنَزَّ بِدُهُ فَأَذَاهُ بَيْضَاءَ اللَّيْلِ نَظِيرِينَ ﴿٢٠٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٠٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ

(١) طه، الآيات: ٤٩ - ٥٨

وَأَخَاهُ وَابْنَتَهُ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

ونجد أن المنهج العقلي يغلب على الحوار في هذه الآيات، وكذلك أسلوب المحاكمات العقلية والجدل والمناظرة، ثم تضمنت الآيات المنهج الحسى حينمالقى موسى عصاه وأخرج يده.

١١- إبطال كيد السحرة ثم إيمانهم وتهديد فرعون لهم:

لما أصّر فرعون على كفره بعد الحوار الذى دار بينه وبين موسى - عليه السلام - مهددا نبي الله موسى بأنه سيلقى به فى السجن لو اتخذ إلها غيره، ولما أظهر موسى المعجزات التى أيده الله بها من قلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء للناظرين أفهم فرعون قومه أن موسى ساحر، وأنهم لابد أن يواجهوه بسحرة مثله، وجمع فرعون السحرة من كل مدينة، ووعدهم ومناهم بالمكأة والجوائز السخية، وحدد يوم عيد لهم يجتمع فيه الناس ليحضرُوا ويشاهدوا هذا الموقف الفريد.

وما كاد السحرة يرون سحرهم وقد بطل حتى أدركوا أن موسى ليس بساحر وإنما هو رسول كريم، فأعلنوا إيمانهم، وثارت ثائرة فرعون، فهددهم بالقتل والصلب فى جدوع النخل، فلم يبالوا بوعيده بعدما ظهرت لهم الآيات، وقالوا: آمنا برب هارون وموسى.

وفى وصف القرآن الكريم لهذا المشهد المثير وما وقع فيه من أحداث ومفاجآت يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسُ ﴿٣٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٣٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَبْعَى ﴿٣٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٤٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ

(١) الشعراء، الآيات: ١٨ - ٣٧

مَنْ أَفْتَرَى (٦٦) فَتَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرِوا (٦٧) التَّجْوَى (٦٨) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرُكَ
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٩) فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ
ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى (٧٠) قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ
أَلْقَى (٧١) قَالَ بَلْ أَقُوا إِذَا جِئْتُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِيَلٍ إِلَيْهِمْ سِحْرُهُمْ أَنَّهُ أَسْعَى (٧٢) فَأَوْحَسَ فِي
نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى (٧٣) فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنْكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٧٤) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ تَلَقَفَ مَا صَنَعُوا
إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٧٥) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا أَمَّا رَبِّ هَارُونَ
وَمُوسَى (٧٦) قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطِيعَ
أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧٧)
قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَاسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٨) إِنَّا أَمَّا نَبْرِيْنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى
(٧٩) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٨٠) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٨١) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٨٢) .

وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْعُرٌ عَلِيمٌ (٢٦١)
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٢٦٢) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْعِ فِي
الَّذَيْنِ خَبِيرِينَ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا سِحْرُ عَلِيمٍ (٢٦٤) فَجُمِعَ السَّحْرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ
(٢٦٥) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٢٦٦) لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُونَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٢٦٧) فَلَمَّا جَاءَ
السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا الْأَجْرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٢٦٨) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ
(٢٦٩) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٢٧٠) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَفَرِعُونَ إِنَّا
لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٢٧١) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٢٧٢) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ
(٢٧٣) قَالُوا أَمَّا نَبْرِيْنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٢٧٤)
(٢٧٥) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٢٧٦) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٢٧٧) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٢٧٨) .

(١) طه، الآيات: ٥٧-٧٦

لَكِبَرِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا لَا ضَرِيرَ عَلَيْنَا إِنْ رَيْنَا مُتَقَلِبُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

وحينما نلحظ النظر في آيات القرآن الكريم التي تعاملت مع هذا الموقف سواء ما جاء في سورة طه أو ما جاء في سورة الشعراء نجد أنها قد استعملت أكثر من منهج وأكثر من أسلوب، ففي آيات سورة طه نرى استعمال المنهج العاطفي ابتداء من الآية التي تقول: ﴿ قَالْ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ ونرى أن الأسلوب المستعمل في هذه الآية هو أسلوب الموعظة الحسنة في شكل التهيب.

واستعمل كذلك المنهج الحسى ابتداء من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخُلُوعِ النَّبِيِّ مِنْ سِحَرِهِمْ أَنهَاتْنِي ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ ونجد كذلك أسلوب التهديد والتهيب في قول فرعون للسحرة: ﴿ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ وكذلك في آيات سورة الشعراء نجد المنهج العاطفي وأسلوب الترغيب في قول فرعون للسحرة لما قالوا له: ﴿ آمِنَّا لَا آخِرَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ونجد أيضا أسلوب التهيب والتهديد في قول فرعون: ﴿ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

ونرى المنهج الحسى في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَيْجِدِينَ ﴾.

(١) الشعراء، الآيات: ٣٤ - ٥١

١٢. طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا:

لما انتهى الموقف السابق بإيمان السحرة الذين حشدتهم فرعون ليظهروا كذب ادعاء موسى انقلب الموقف رأسا على عقب، وربما دعا ذلك الكثيرين أن يفكروا في الإيمان بما جاء به موسى، وربما يكون فرعون قد أدرك ذلك، فأراد أن يموجه على عامة الناس، فطلب إلى هامان أن يبني له صرحا ليصعد عليه - في زعمه - ويتحدث مع إله موسى؛ لأنه يظن أن موسى كاذب، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَدْعُونَ ابْنَ آلِ صَرَحًا لَعَلِّي آتِلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَكْظُمُهُ كَذِبًا ۖ وَكَذَلِكَ رُتِنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۖ ﴿٣٧﴾﴾ (١).

١٣. استبداد الفيظ بفرعون وإعلانه عن رغبته في قتل موسى:

لم يستطع فرعون أن ينسى إيمان السحرة، وما يتركه ذلك من أثر في نفوس العامة فتماذى في تخطئه، وبعد أن طلب من هامان أن يبني له صرحا أعلن أنه يريد قتل موسى؛ لأنه يخشى أن تؤثر دعوته في أهل مصر فيتركوا دينهم ويتبعوا دين موسى، ولما بلغت هذه الصيحة الحاقدة أسمع موسى استعاذ بالله من كل متكبر جبار، يقول الله تعالى في هذا المعنى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانٍ وَقُرُونٌ فَقَالُوا اسْحِرْ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ (٢).

وكان هذا الإعلان من فرعون عن رغبته في قتل موسى سببا في أن يتكشف أن هناك مؤمنين بموسى من قوم فرعون، ولم يجدوا بدا من أن يعلنوا عن إيمانهم

(١) غافر، الآيات: ٣٦، ٣٧

(٢) غافر، الآيات: ٢٣ - ٢٧

لما أحسوا بالخطر يتهدد صاحب الدعوة موسى - عليه السلام - فأخذ أحدهم يعيب على فرعون وقومه عزمهم على إيذاء موسى، ويحذروهم من العواقب؛ حتى لا يغتروا بما هم فيه من ملك وسلطان، فيوشك ذلك أن ينحسر عنهم، ويواجهوا مصيرهم حين لا يجدون حجة يتعللون بها.

وهذا يعنى أن دعوة موسى قد وجدت طريقها إلى قلوب أناس من قوم فرعون بعدما رأوا الآيات التى لا يسع منصفاً أن يتجاهلها، وعن هذا الموقف يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ٣١﴾ وَيَنْقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ٣٢﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿١﴾

ونلمح فى الجزء الأول من الآيات التى عرضت موقف مؤمن آل فرعون استعمال المنهج العقلى، والمحاكمات العقلية كأسلوب لهذا المنهج العقلى.

أما الآيات التى بدأت بقوله تعالى: ﴿...إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ... إلخ﴾ فإن المنهج العاطفى هو الغالب عليها وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكل الترهيب.

(١) غافر، الآيات: ٢٨ - ٣٤

١٤- ابتلاء الله آل فرعون بألوان من العذاب:

لما تمادى فرعون وقومه فى تكذيب نبي الله موسى - عليه السلام - بعدما رأوا من الآيات والمعجزات التى أيده الله بها، وما بدا من تكبر فرعون وطغيانه لما قال لقومه: ما علمت لكم من إله غيرى، وطلبه إلى هامان أن يبنى له صرحا، وعزمه على قتل موسى، وطاعة قومه له فى ادعائه، واستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين، ابتلاههم الله بإرسال الجراد عليهم والقمل والضفادع، واختلاط الدم بالماء يشربونه؛ لعلهم يعودون إلى الحق، ويتهون إلى الصواب الذى ضلوا عنه، فلما رأوا ما هم فيه من منغصات أرسلها الله عليهم بسبب كفرهم لجأوا إلى موسى يطلبون إليه أن يدعو ربه ليصرف عنهم ما يعانون من البلاء، وحينما يصرف الله عنهم ما هم فيه سيؤمنون بموسى وسيرسلون معه بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه فصرف عنهم، وكان المنتظر أن يؤمنوا بعدما رأوا، ووفاء بما وعدوا به، ولكنهم نكثوا ما عاهدوا عليه، وعادوا إلى طغيانهم وكفرهم؛ ولذلك حلت عليهم نقمة الله، يقول القرآن الكريم فى هذه المرحلة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيْنِ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُتَحَرَّكَ بِهَا فَمَا تَخِفُنَا لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۝١٣٥﴾ (١).

وقد أشار القرآن الكريم إلى نفس المرحلة فى سورة الزخرف ولكن فى إيجاز

(١) الأعراف، الآيات: ١٣٠ - ١٣٥.

حيث يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا إِنَّا إِلَهُ السَّاحِرِ أَدْعُ لِنَارِكَ يَمَاعِهِدْ عِنْدَكَ إِنَّا لَكَاهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (١).

غطى الكفر والعناد على بصيرة فرعون فلم ينتفع بما رأى من الآيات الباهرات، ولم يتعظ قومه بما رأوا من آثار قدرة الله حينما صرف عنهم أنواع البلاء استجابة لدعوة موسى - عليه السلام - وتابعوا فرعون في ادعائه وافتخاره بما لديه من ملك وقصور تجري من تحتها الأنهار، وما يمتلكه من رينة الحياة الدنيا التي ليس لدى موسى - عليه السلام - شيء منها؛ ولهذا كان هذا الطغيان وذلك الكفران سببا إلى أن يحل بهم الغرق، وينزل بهم عذاب الله، ويعبر القرآن الكريم عن الفترة التي سبقت الغرق فيقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ الْإِنسَ إِلَىٰ مُلْكٍ مِّصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ آبٍ يَّابِئٌ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا الْفِي عَلَيْهِ أَسْرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأُ بِكَ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا أَسْفَوْنَا أُنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (٢).

١٥. انغلاق البحر، ونجاة بنى إسرائيل، وغرق فرعون وقومه،

حشد فرعون ماشاء من رجاله، ودعاهم إلى القضاء على موسى وبنى إسرائيل، وكان موسى - عليه السلام - قد خرج ببني إسرائيل ليلا متجها نحو الشرق، ولما رأوا فرعون ومن معه يتابعونهم تملكهم الخوف والقلق خشية من أن يلحق بهم فرعون ورجاله، وأخبروا موسى بما يساورهم من خوف وقلق، فطمأنهم موسى - عليه السلام - قائلا: إن معي ربي سيهدين. ولما دنوا من شاطئ البحر أوحى الله إلى نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه، فأنحسر الماء إلى جانبيين، كل منهما كالجبل العظيم، ونهيا لموسى ومن معه طريق يابس في البحر، فعبروا البحر، وتبعهم فرعون ومن معه من رجاله، فأطبق

(١) الزخرف، الآيات: ٤٩، ٥٠.

(٢) الزخرف، الآيات ٥١ - ٥٦.

عليهم الماء فغرقوا، يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الحدث في عدة مواضع، في سورة البقرة، والأعراف، ويونس، وطه، والشعراء، والدخان، وسور أخرى.

وتقول آيات سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ٥٤﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ ٥٥ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٦ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ٥٧ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ٥٨ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٩ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ٦٠ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٦١ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٦٢ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ٦٣ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٤ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٥ وَأَزَلْنَا مِنْهُ الْآخَرِينَ ٦٦ وَأَبْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٧ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٦٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٩﴾ (١).

أما آيات سورة طه فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ٧٧ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ (٢).

وتحدثنا آيات سورة يونس أن فرعون لما أدركه الغرق أعلن إيمانه بإله بني إسرائيل، وأن الله نجي بدنه ليكون عظة للناس وعبرة، تقول الآيات: ﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ ءَاَلْكَنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَنُكَوِّنَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ٩٢﴾ (٣).

ولو أردنا أن نتعرف على نوع المناهج والأساليب التي استعملت في الآيات السالفة لرأينا المنهج الحسي واضحاً فيها؛ إذ أمر الله موسى أن يضرب البحر

(١) الشعراء، الآيات: ٥٢ - ٦٧

(٢) طه، الآيات: ٧٧ - ٧٩

(٣) يونس، الآيات: ٩٠ - ٩٢

بعضاه فانفلق إلى فرقين عظيمين، كل فرق كالطود العظيم، وقد رأى بنو إسرائيل
وفرعون وجنوده انحسار ماء البحر، واتخذوا لهم فيه طريقا، وانحسر الحادث
الخارق للعادة عن نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون وجنوده، وهذه كلها أمور
محسوسة رآها وعاشها من كان هناك من الفريقين.

وإلى هذا الحد من أحداث دعوة موسى - عليه السلام - انتهى الصراع بين
الحق الذى جاء به موسى وبين الباطل الذى كان يمثل فرعون بادعائه الألوهية،
ولكن بدأ طور آخر من دعوة موسى - عليه السلام - يتمثل فى موقف بنى
إسرائيل بعد أن نجاهم الله من العذاب والقتل، وقد رأوا من آيات الله التى آتاها
لنبيه موسى ما يجعلهم فى الذروة من اليقين والاستجابة والإيمان بالله الذى
أرسل لهم موسى ونجاهم على يديه من البلاء الذى عانى منه أجيالهم قبل أن
يرسل الله إليهم موسى، وقوم قد عاشوا هذه الأحداث ورأوا ما صنع الله لهم
رأى العين كان المنتظر أن يكونوا نموذجاً للطاعة والاستسلام لأمر الله وأتباع ما
يدعوهم إليه نبيهم - عليه السلام - ولكن بنى إسرائيل سرعان ما نسوا كل ذلك
حينما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلها
مثل هذه الآلهة، وهذا الطلب الغريب أول المظاهر التى بدت من بنى إسرائيل
التي تدل على كفرانهم لنعم الله عليهم، ونكرانهم لحسن ما صنع الله بهم.



مظاهر تمرد بنى إسرائيل ونكرانهم للجميل

١- طلب بنى إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهًا،

لم يكذب بنو إسرائيل ينجون من فرعون وجنوده حتى نسوا كل ما صنع الله من أجلهم، فأخذ العجب من موسى كل مأخذ، كيف يفكر هؤلاء فى اتخاذ إله من الأصنام، وقد أهلك الله عدوهم، ولذلك دمغهم بالجهل، وأخذت الآيات التى تناولت هذا الموقف تذكرهم بالأمس القريب الذى كانوا يعانون فيه من البلاء العظيم، لما كان فرعون يقتل أبناءهم ويستبقي نساءهم، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَنَوْزَنَا بِقِيٍّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْطَلُّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَمِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ (١)

٢- اتخاذهم العجل،

لما ذهب موسى - عليه السلام - لميقات ربه استخلف أخاه هارون - عليه السلام - على بنى إسرائيل، وأثناء ذلك صنع لهم السامرى عجلا من الذهب الذى أخذوه معهم من قوم فرعون، وعكفوا على عبادته، ولم يستمعوا إلى نصيح هارون - عليه السلام - لهم ونهيهم إياهم عن هذا الكفر مذكرا إياهم أن الله هو إلههم، لكنهم أصروا على عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى، وكانت

(١) الأعراف، الآيات: ١٣٨ - ١٤١

غيبه موسى قد استمرت أربعين ليلة كما قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَا بَعْدَ بَعْثِ قَوْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(١). وقد أخبره الله أن قومه قد فتنوا باتخاذهم العجل إلها، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الموقف في سورتي الاعراف وطه، أما آيات سورة الاعراف فتقول: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَافَةً عِجْلًا جَسَدًا لَمْ خَوَّارُ الْغَيْرِ وَأَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^{١٧٨} وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^{١٧٩} وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَاتَّخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرَهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوا عُنْفُوِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^{١٨٠} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^{١٨١} إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾^(٢).

وأما آيات سورة طه فتقول: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّى ۖ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَصَيْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^{١٨٢} قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^{١٨٣} فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفْطَالَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾^{١٨٤} قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾^{١٨٥} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَمْ خَوَّارُ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَاسِيَ﴾^{١٨٦} أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^{١٨٧} وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾^{١٨٨} قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ كَافِرِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾^{١٨٩} قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾^{١٩٠} أَلَا تَتَّبِعُنِي

(١) الاعراف، من الآية: ١٤٢

(٢) الاعراف، الآيات: ١٤٨ - ١٥٢

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ ﴿١٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾

٢. طلبهم رؤية الله جهرة:

وهذا مظهر آخر من مظاهر تمرد بني إسرائيل وعتتهم لنبي الله موسى - عليه السلام - حيث قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ بِتِ بَعْدَ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

٤. تبرهم بنعمة الله عليهم:

وذلك أن موسى - عليه السلام - لما استسقى لهم وأمره الله بأن يضرب الحجر بعصاه ففجر لهم اثنتي عشرة عينا، وورقهم بالمن والسلوى، وهذا لون راق من الطعام، ولكنهم ضاقوا بذلك، وطلبوا إلى موسى - عليه السلام - أن يدعو الله كي يخرج لهم من نبات الأرض، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِيدٍ فَاذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَقَسْبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَا لَشْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ

(١) طه، الآيات: ٨٣ - ٩٨

(٢) البقرة، الآيات: ٥٥ ، ٥٦

وَبَاءُ وَيَنْضَبِرُونَ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١﴾

٥- إيذاؤهم موسى - عليه السلام - بكثرة الأسئلة لما أمرهم بذبح البقرة،

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَلْخُذَنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ طَفَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٩﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَدَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَن جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾

٦- رفضهم الاستجابة لأمر موسى؛

لما أمرهم بدخول الأرض المقدسة؛ محتجين بأن فيها قوما جبارين؛ ولذلك عاقبهم الله بأن ضرب التيه عليهم أربعين سنة. وفي ذكر هذا الحدث يقول الله تعالى: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدَارِكُوهَا فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرِّقْ بَيْنَنَا

(١) البقرة، الآية: ٦١

(٢) البقرة، الآيات: ٦٧ - ٧١

وَبَيَّنَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٩﴾.

٧. تحريضهم للكتب السماوية:

ولإخفاؤهم لبعض ما أوحى الله إلى أنبيائه لأنه لا يتفق مع أهوائهم، وكانوا يفعلون ذلك جريا وراء عرض قليل من المال يكسبونه، وأحيانا كانوا يكتبون بعض الأشياء يزعمون أنها من عند الله وهي ليست من عند الله، وهم في الحقيقة يكذبون على الله في ادعائهم هذا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أفعالهم هذه القبيحة، فبالنسبة لكتابة شيء من عند أنفسهم وادعائهم أنه من الوحي يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وبالنسبة لإخفائهم بعض الوحي لأنه لا يتفق مع أهوائهم يقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٧٩﴾﴾. ويقول سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَائِفًا يُدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُكُمْ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ وَلَآءِ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.



(١) المائدة، الآيات: ٢١ - ٢٦

(٢) البقرة، الآيات: ٧٨، ٧٩

(٣) المائدة، الآية: ١٥

(٤) الأنعام، الآية: ٩١

اللقاء بين نبي الله موسى والعبد الصالح

تروى الآثار التي جاءت حول هذا اللقاء سبيين، أحدهما: أن رجلا من بنى إسرائيل سأل موسى: هل هناك من هو أعلم منك؟ فقال: لا. وثانيهما: أن موسى - عليه السلام - سأل ربه: هل هناك من هو أعلم منه، فقال: نعم، عبد لى عند مجمع البحرين، وقد أورد البخارى ما روى حول هذا اللقاء، وسنكتفى بإيراد الحديث الأول، الذى يرويه سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «قُلْتُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْقًا الْبِكَالَى يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ بَنَى إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حَدَّثَنِي أَبِي ابْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنَى إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَى النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبُّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ تَأْخُذْ مَعَكَ حَوْتًا فَتَجْعَلْهُ فِي مَكْتَلٍ، فَخِيْشُمَا فَقَدَزْتَ الْحَوْتَ فَهُوَ ثَمٌّ، فَتَأْخُذْ حَوْتًا فَتَجْعَلْهُ فِي مَكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلِقْ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ حَتَّى إِذَا أَتَى الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَتَاهُمَا، وَاضْطَرَبَ الْحَوْتَ فِي الْمَكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتَ جَرِيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحَوْتَ فَانْطَلَقَا بِقِيَةِ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: أَتَنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَا الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ:

أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ؟ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، قَالَ فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا وَلَمُوسَى وَلَفْتَاهُ عَجَبًا، قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، قَالَ: رَجَعَا يَقْضَانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًى ثَوْبًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى بْنُ إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَى: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا، فَاِنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأَا إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَاخْرَجْتَهُمْ لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا؟ قَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَنَقَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَآخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا، قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا، فَاِنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ

أَنْ يَنْقُضَ - قال: مائل - فقام الخضر فأقامه بيده. فقال موسى: قوم آتيناكم فلم يُطعمونا ولم يُضَيِّقُوا، لو شئت لانتخذت عليه أجرا، قال: هذا فراق بيني وبينك.. إلى آخر الآيات. فقال رسول الله ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا خَبْرَهُمَا^(١).

وقد قصت علينا سورة الكهف سعي موسى - عليه السلام - للقاء العبد الصالح وطلبه إلى أن يصحبه ليتعلم منه، والأحداث التي وقعت واعتراض موسى وتفسير الخضر للأمور التي أثارت موسى - عليه السلام - يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَتِلْغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَاغِدَاءٌ لَّنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعِلْمَنَهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۖ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِن مَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ مُخْبِرًا ۖ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۖ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ

(١) راجع فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٤٠٩، ٤١٠

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلْفُلُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخْبَيْنَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ لَهُمَا فَاكْتُوهُمَا ذُكُورًا وَأُنثَىٰ ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ (١).

وقد اختلف العلماء في تحديد مجمع البحرين، هل هو: بحر فارس والروم أو هما الكر والرس حيث يصبان في البحر؟ أو ذراع في أرض فارس من جهة أذربيجان يخرج من البحر المحيط من شماليه إلى جنوبيه وطرفيه مما يلي الشام. أو بحر الاردن والقلزم؟ أو مجمع البحرين بطنجة؟ أو أرمينية أو أفريقية؟ (٢).

واختلف في العبد الصالح: هل هو نبي أو ليس بنبي؟ يرى أغلب العلماء أنه ليس بنبي، ويرى فريق آخر أنه نبي، وإذا أردنا أن ندلى بدلونا في الدلاء، وننظر في أي الرأي أرجح فإننا حينما نتمعن النظر في الآيات التي قصت هذه القصة نجد أن العبد الصالح قال في ختامها بعد أن بين لموسى - عليه السلام - الأسباب التي دفعته إلى الإقدام على ما صنع والتي أثارت اعتراض موسى - عليه السلام - نراه بعد أن بين ذلك يعقب قائلا: وما فعلته عن أمري. يعني أن الأمر بذلك قد جاءه من الله سبحانه. والأمر من الله إلى عباده يكون عن طريق الوحي، والوحي لا يأتي إلا إلى الأنبياء - عليهم السلام - وهذا يعني أن العبد الصالح كان نبيا، يؤكد هذا الاستنتاج ما جاء في الحديث حينما أخبره موسى بأسمه، فكان تعليقه: موسى بنى إسرائيل؟ وقوله لموسى: إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. ثم قوله لموسى - عليه

(١) الكهف، الآيات: ٦٠ - ٨٢

(٢) راجع فتح الباري، ج ٨ ص ٤١٠

السلام - لما جاء عصفور فنقر في البحر نقرة: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

وقد صرح الحديث بأن اسمه الخضر، وقد ثار خلاف حول بقاء الخضر حياً، فقال بحياته عدد من الناس، وكثر الحديث عن حياته ولقائه بالناس وحديثه إليهم بين شيوخ الصوفية، وأنكر جمهور العلماء ذلك؛ لأن الله - سبحانه - يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّينَ فِيكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾^(١). ولأن النبي ﷺ قال ما معناه: «لا تبقى على وجه الأرض نفس متفوسة بعد مائة عام من الآن» ولأنه لو كان حياً لالتقى بالنبي ﷺ ولم يقل أحد بهذا، وكل ما روى أن رسول الله ﷺ لما مات، وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب. . فقال على - رضى الله عنه -: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام^(٢).

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بعد إيراد بقوله: وهذا الحديث مرسل، وفي إسناده ضعف بحال القاسم العمرى هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلية آخرون^(٣).

والخلاصة أنه ثار خلاف بين العلماء حول نبوة الخضر، وحول حياته، فأقر بنبوته جماعة ورفضها آخرون، وقد أشرنا إلى ترجيح نبوته للأدلة التي سبق عرضها. وكذلك اختلفوا في بقاءه حياً أو موته، فقال بحياته جماعة وبخاصة الصوفية، وأنكر ذلك آخرون، وعرضنا أدلة هؤلاء القائلين بموته، ورجحنا هذا الرأي لأن الأدلة تشهد له، وبعد أن عرضنا هذا اللقاء بين موسى والخضر - عليهما السلام - يرد سؤال: ماذا نستفيد من ذلك؟

(١) الأنبياء، الآية: ٣٤

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٤ ص ٥٥٠

(٣) المصدر السابق

ويستفاد من هذا اللقاء ما يلي:

١ - أن الإنسان مهما أوتي من علم فإن ما لم يعلم أكثر مما علم، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أُوتِشِرَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

٢ - أن الإنسان مطالب بالصبر على ما لم يعرف حتى يتبين له حقيقة ما جهله، ويستفاد ذلك من الحوار الذي دار بين موسى والخضر عليهما السلام.

٣ - أن الإنسان يسعى لتحصيل العلم مهما بلغ من درجاته، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى على لسان موسى للخضر - عليهما السلام -: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٢).

٤ - أن على طالب العلم أن يتحلى بالتواضع والادب مع من يتعلم على يديه، وهو مفهوم قول موسى للخضر - عليهما السلام -: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

٥ - أن العالم مهما بلغ من علمه لا بد أن ينسب العلم إلى صاحبه، وهذا مفهوم من قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^(٣).

الدروس المستفادة من دعوة موسى عليه السلام:

يستفيد الدعاة من دراستهم لدعوة موسى - عليه السلام - ما يلي:

أ - مقابلة الابتلاء بالرضا، وذلك من قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٤).

ب - التوكل على الله يهيء لصاحبه سبل النجاة؛ فقد بعث الله إلى موسى من حذره من تأمر الملأ من قوم فرعون، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٨٥

(٢) سورة الكهف، من الآية: ٦٦

(٣) سورة الكهف، من الآية: ٨٢

(٤) سورة القصص، من الآية: ٢٤

رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ
مِنَ النَّصِيحَةِ ﴿١﴾

ج - الثقة في وعد الله تعطى صاحبها القدرة على الثبات واليقين حتى يتمكن
من التغلب على الصعاب، ويؤخذ ذلك من قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَنَعَانِ قَالَ
أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٢﴾﴾

د - أن صاحب الحق لا يبالي بمن خالفه مهما كانت مكانته، ويؤخذ هذا من
موقف السحرة بعد إيمانهم وعدم مبالاتهم بفرعون وتهديده، وإلى ذلك يشير
القرآن الكريم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ
إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهٖ مِنَ السِّحْرِ
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾

هـ - أن الحق لا يعدم نصيرا في أحلك الظروف وأقساها، وخير دليل على
ذلك موقف الرجل الذي كان يكتن إيمانه لما أحس بالخطر يتهدد صاحب الدعوة
موسى - عليه السلام - جهر بإيمانه وأخذ يدافع عن الحق وصاحبه، وفي ذلك
يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ
أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾

و - أن الصبر يأتي بالنتائج الطيبة لأصحابه، فصبر موسى - عليه السلام - كان
عاقبته النجاح، وإنجاء الله له ولمن معه من فرعون وظلمه.

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢

(٣) سورة طه، الآيتان: ٧٢، ٧٣

(٤) غافر، الآية: ٢٨

ز - أن الداعية لابد أن يتحلى بالحلل والرفقة والرفق والرحمة بمن يدعوهم، حتى وإن أساءوا، فقد رأينا موسى - عليه السلام - رفيقا بقومه على الرغم من العنت الذى واجهه منهم، حينما طلبوا إليه أن يروا الله جهرة، وحينما أعلنوا تبرمهم بطعام المن والسلوى الذى أنزل الله عليهم تكريما لموسى وقالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ مِّنْ جَدِيفٍ أَذْغُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾^(١). وحينما أمرهم بذبح البقرة وحينما طلبوا إليه أن يجعل لهم آلهة من الأصنام بقولهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قال إنكم قوم تجهلون^(٢).

* * *

(١) البقرة، من الآية: ٦١

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٣٨

دعوة عيسى عليه السلام

عيسى - عليه السلام - أحد أولى العزم من الرسل، وهو كلمة الله وروح منه، تردد اسمه في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة، جاءت في إحدى عشرة سورة، وقد أشار الحديث النبوى إلى أنه بشر برسول الله ﷺ في قوله صلوات الله عليه: «أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة أخى عيسى» وقد جاءت هذه البشارة في سورة الصف من القرآن الكريم، حيث يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَوْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سُبْحَانَ إِلَهِىَ رَبِّىْ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَهِكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىْ مِنَ النُّبُوَّةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِىَ اسْمُهُ إِسْحَاقُ﴾ (١).

ولما كانت حياة أمه مريم وولادته - عليه السلام - من الأمور التى جرت على خلاف العادة المتبعة فى الحمل والولادة كان الإلمام بميلاد مريم وحياتها وميلاد عيسى - عليه السلام - يمثل مرحلة لها أثر واضح فى دعوته وموقف الناس منه ومن أمه.

ميلاد مريم ونشأتها:

كانت «حنان» زوج عمران لا تنجب، فرأت طائرا يزق وليده فاشتبهت الولد، ونذرت إن وهبها الله ولدا أن تجعله من خدام بيت المقدس، وكان زوجها عمران رجلا صالحا، وكان إمام الصلاة، وقد استجاب الله دعاء زوج عمران، ووضعت طفلتها مريم، وكان من عادتهم أن لا يخدم البيت إلا الذكور، وهى تريد أن تفى بنذرهما، فاتجهت إلى الله بالدعاء، وقد قص علينا القرآن الكريم مشاهد هذا الموقف وأن الله تقبل دعاء زوج عمران وتقبل مريم بقبول حسن، وجعل كفالتها

(١) الصف، من الآية: ٥

لزوج خالتها زكريا - عليه السلام - وقد رأى زكريا من إكرام الله لها وفضله عليها أن الرزق يأتيها في غير مواعده، فيسألها عن مصدره، فيتلقي الجواب: إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ونشأت مريم في هذا الجو الطهور، وكانت الكرامة التي أكرمها الله بها دافعا لزكريا - عليه السلام - أن يدعو ربه أن يرزقه ذرية طيبة، فاستجاب الله دعاءه على الرغم من كبر سنه، وامراته العاقرة، ورزقه الله بيهي. ولما شبت مريم جاءتها البشري على لسان الملائكة بأن الله اصطفاه وطهرها على نساء العالمين مشفوعة بالأمر بالقنوت والسجود والركوع.

وفى تصوير هذه الأحداث يقول القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ٢٦ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٢٧ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤْمُؤُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢٨ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٢٩ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٠ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ٣١ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ٣٢ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذُنًا ذَكِرًا ٣٣ وَسَجَّعَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ٣٤ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُؤُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٣٥ يَمْرُؤُؤُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ٣٦ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٣٧ (١)

(١) آل عمران، الآيات: ٣٥ - ٤٤

ميلاد عيسى عليه السلام.

كانت مريم الطهور البتول مستغرقة في عبادتها ونسكها، وإذا بها تفاجأ بالملائكة تخبرها أن الله يشورها بولد، فاستبد بها العجب والدهشة؛ لأنها ليس لها زوج ولأنها لم يمسه بشر، فكان الجواب أن هذه إرادة الله، وقد خلقها من قبل، وإذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، وتقبلت إرادة الله بالرضا والقبول، إلا أنها لما حانت لحظة الوضع استشعرت اللحظات الحرجة التي ستواجه فيها الناس، وماذا ستقول لهم؟ وهم يقيسون الأمور بالمقاييس البشرية؟ حتى إنها تمنّت أن تكون قد ماتت قبل أن تتعرض لمثل هذا الموقف العصيب، وقد تحقق ما توقعته من اتهامها وهى المطهرة المصطفاة، والقرآن الكريم يقص علينا تطور هذه اللحظات الحرجة فى موضعين: الموضع الأول سورة آل عمران، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ ٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٧ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ ٤٩﴾ (١).

والموضع الثانى الذى حدثنا القرآن الكريم فيه عن حمل مريم وولادتها جاء فى سورة مريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ٦١ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ٦٢ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ٦٣ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ٦٤ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٦٥ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَهٗ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٦٦ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ٦٧ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جَنَعٍ

(١) آل عمران، الآيات: ٤٥ - ٤٩

النَّخْلَةَ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٢﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَنْحَرِي
 قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٣﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جُثِيًّا ﴿٢٤﴾
 فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ
 أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٥﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
 فَرِيًّا ﴿٢٦﴾ يَتَأَخَذُ هَذُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٧﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ
 قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٨﴾

وإذا أحببنا أن نتعرف على مافى هذين النصين من مناهج فإننا نقول: إنها
 مناهج ربانية؛ لأن مصدرها الكتاب، وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين
 يديه ولا من خلفه، والمناهج الربانية تتميز بأنها معصومة من الخطأ، وأنها أصل
 لغيرها من المناهج، وأما أسلوبها فهو أسلوب القصص المثير للتفكير والتأمل
 وأخذ العبرة.

حديث عيسى في المهد:

راينا كيف أشارت أصابع الاتهام إلى مريم، وكيف توجه إليها قومها بالإساءة
 والتوبيخ؛ لأنها - في زعمهم - لم تحافظ على سمعة أبيها النقية، ولا مسلك أمها
 العفيفة الطاهرة، ويش ما قالوا!! وكان لابد أن يكون هناك دليل خارق للعادة
 ليبريء مريم من هذا الاتهام الظالم، وساق الله - جلّت قدرته - هذا الدليل
 ليخرس السنة هؤلاء المتقولين عليها، فأنطق طفلها الوليد وهو لا يزال في المهد.
 وكان هذا أمرا معجزا آخر ساقه الله ليبريء ساحتها، ويشير إلى ما أعده من
 النعمة والكرامة والنبوة لهذا الوليد الذي جاء على غير الطريق المعهود، وفي ذلك
 يقول الله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنِّي
 عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ

(١) مريم، الآيات: ١٦ - ٢٩

وَالزَّكَاةَ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٦﴾ وَبِرَّآبَائِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٧﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

ومن الواضح من نص الآيات الكريمات أن عيسى - عليه السلام - تكلم وهو في المهد، يعنى لم يزل رضيعا بعد؛ ولكننا نلاحظ أن الآيات الكريمات تنص على أن عيسى - عليه السلام - قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلْنِي نَبِيًّا﴾ ومن المعلوم لدى علماء الأديان أن عيسى لم ينبأ قبل أن تبلغ سنه الثلاثين، فكيف عبر القرآن عن إتيائه الكتاب وجعله نبيا بالفعل الماضى الذى يفيد حصول الحدث قبل الحديث عنه؟

ولدفع هذه الملاحظة نقول: إن التعبير عن الأحداث المستقبلية بالفعل الماضى يشير إلى أن هذه الأحداث ستقع حتما؛ لأنها خبر من الله العلى القدير، وقد جرى القرآن فى كثير من الإخبار عن المستقبل على هذا المنهج نفسه، وقد وقفنا على ما حدث به القرآن عن ميلاد عيسى - عليه السلام - والظروف التى أحاطت به والخوارق التى صاحبته، وإذا أردنا أن نتعرف على ما جاء فى بعض الاناجيل التى تتفق فى كثير مما جاءت به مع ما جاء فى القرآن الكريم فإننا نصفح الإنجيل المنسوب إلى برنابا، وكان يكتب ما يقوله له عيسى - عليه السلام - وللأسف فإن الكنيسة قد أصدرت أمرا يحرم على المسيحيين قراءة إنجيل برنابا هذا، وفى هذا الإنجيل: الفصل الأول الذى جعل عنوانه «بشرى الملاك جبريل للعدراء مريم بولادة المسيح» نقرأ النص التالى:

١ - لقد بعث الله فى هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبريل إلى عدراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا.

٢ - بينما كانت هذه العدراء العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب، المتزهة عن اللوم، المثابرة على الصلاة مع الصوم يوما وحدها، وإذا بالملاك جبريل قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلا: «ليكن الله معك يا مريم».

(١) مريم، الآيات: ٣٠ - ٣٧

- ٣ - فارتاعت العذراء من ظهور الملاك .
- ٤ - ولكن الملاك سكن روعها قائلاً: لا تخافى يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله الذى اختارك لتكونى أمَّ نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل؛ ليسلكوا فى شرائعه بإخلاص .
- ٥ - فأجابت العذراء: وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلاً؟ .
- ٦ - فأجاب الملاك: يا مريم إن الله الذى صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيه إنساناً من غير إنسان، لأنه لا محال عنده .
- ٧ - فأجابت مريم: إني لعامة أن الله قدير فلتكن مشيئته .
- ٨ - فقال الملاك: كونى حاملاً بالنبي الذى ستدعيه يسوع .
- ٩ - فامنع به الخمر والمسكر وكل لحم نجس؛ لأن الطفل قدوس الله .
- ١٠ - فأنحنت مريم بضعة قائمة: هاأنذا أمة الله، فليكن بحسب كلمتك .
- ١١ - فانصرف الملاك .
- ١٢ - أما العذراء فمجدت الله قائلة .
- ١٣ - اعرفى يا نفس عظمة الله .
- ١٤ - وافخرى يا روحى بالله مخلصى .
- ١٥ - لأنه رمق ضعة أمته .
- ١٦ - وستدعونى سائر الأمم مباركة .
- ١٧ - لأن القدير صيرنى عظيمة .
- ١٨ - فليتبارك اسمه القدوس؛ لأن رحمته تمتد من جيل إلى جيل للذين يتقونه .
- ١٩ - ولقد جعل يده قوية فبدد المتكبر المعجب بنفسه .
- ٢٠ - ولقد أنزل الأعداء من عن كراسيهم ورفع المتضعين .
- ٢١ - أشبع الجائع بالطيبات، وصرف الغنى صفر اليدين .
- ٢٢ - لأنه يذكر الوعود التى وعد بها إبراهيم وبنيه إلى الأبد^(١) .
- فهذا النص من إنجيل برنابا يتحدث عن اصطفاء مريم وحملها بوعسى - عليه

(١) إنجيل برنابا - الفصل الأول ص ١٤ نشر دار الوثائق بالكويت .

السلام - بما يتفق مع ما قرره القرآن الكريم، وإن كان القرآن الكريم قد أعطانا تفاصيل مثيرة عن الأحداث والمشاعر التي اعتلج بها فؤاد مريم، والظروف البيئية التي صاحبت ميلاد نبي الله عيسى - عليه السلام - واتهام قومها لها، وإظهار الله براءتها على لسان وليدها الذي تكلم وهو لما يزل في المهد صبيًا.

ولعلنا نتساءل: من هو برنابا الذي ننقل عن إنجيله هذا الفصل؟ وما الفرق بينه وبين الأناجيل الأخرى التي بأيدي النصارى في أيامنا هذه؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول: إن برنابا أحد الحواريين الاثني عشر الذين اختارهم عيسى كما جاء في الفصل الرابع عشر من إنجيل برنابا، وأنه كتب هذا الإنجيل لينبه على الضلال الذي وقع فيه الكثيرون بعد عيسى، ومنهم بولس، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، ورفضوا الختان الذي أمر الله به دائما وجوزوا أكل اللحم النجس، ويتميز إنجيل برنابا عن غيره من الأناجيل بأنه ينص على أن عيسى - عليه السلام - رسول ونبي، وأن الذبيح هو إسماعيل - عليه السلام - وليس إسحاق، وأن فيه البشارة بمجيء محمد ﷺ.

نبوة المسيح عليه السلام:

لم يحدثنا القرآن الكريم عن الأحداث التي جرت بعد ميلاد عيسى وكلامه في المهد إلى أن جاءت النبوة، وإن كانت بعض الكتب قد تناولت هذه الفترة، وسنعمد في المعلومات التي تتعلق بالمرحلة السابقة على النبوة إلى أن جاءت النبوة على ما جاء في إنجيل برنابا حيث يقول: إن عيسى - عليه السلام - ذهب مع أمه ويوسف النجار إلى مصر هربا من هيردوس الذي أراد قتله، ثم عاد لما بلغ سن السابعة، وأخذ منذ ذلك الحين يحاج علماء اليهود في أمر الناموس، ونال إعجاب من سمعه حتى كانوا يتساءلون: كيف أوتى مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة؟!

إلى أن بلغ سن الثلاثين جاءه جبريل وهو على جبل الزيتون، وأعطاه كتابا، وعرف عيسى بعد ذلك أنه نبي مرسل^(١).

(١) راجع إنجيل برنابا - الفصل الثامن والتاسع والعاشر ص ١٨، ١٩، ٢٠.

وفى رسالة عيسى ونبوته يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾

ومن هذا النص القرآنى الكريم نعرف أن عيسى أرسل إلى بنى إسرائيل، وأنه
بشر برسول الله ﷺ.

ويقول مشيرا إلى نزول الإنجيل على عيسى - عليه السلام -: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى
مَائِثِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

وقد واجه عيسى إنكارا واعتراضات من اليهود الذين كذبوه وأخذوا يؤلبون
عليه الحاكم الرومانى، وقد أيد الله عيسى - عليه السلام - بعدد من المعجزات فى
مواجهة هذا الإنكار اليهودى، وهذه المعجزات هى: خلق الطير من الطين،
وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإنبأهم بما يأكلون وما يدخرون فى
بيوتهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعجزات فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ
الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا
تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤﴾

ومن معجزاته أيضا إنزال المائدة حينما طلب إليه الحواريون أن يسأل الله أن
يتزل عليهم مائدة من السماء تكون لهم عيدا، وقد ساق القرآن الكريم أمر هذه
المائدة فى مجال تعداد نعم الله على عيسى - عليه السلام - وعلى أمه فى سورة

(١) الصنف، الآية: ٦

(٢) المائدة، الآية: ٤٦

(٣) آل عمران، الأيتان: ٤٨، ٤٩

المائدة، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي
فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا
ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ
رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا
نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ
﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا
وَأَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ
مِنْكُمْ فَأِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾.

وشاية اليهود بعيسى ومحاولة قتله:

شعر الكهنة وأرباب الهيكل من اليهود أن بقاء عيسى خطر عليهم وإيذان
بإنهاء سلطانتهم؛ لأنه سيكشف للشعب خداعهم وكذبهم، فأخذوا يعملون الحيلة
للتخلص منه، ووشوا به إلى ملك الرومان مدَّعين أنه يزعم أنه ملك إسرائيل،
وفي هذا خطر شديد على ملك الرومان، واستطاعوا أن يعقدوا اتفاقاً مع يهوذا
الإسخريوطي الخائن ليدل رجال الرومان على عيسى ليقتلوه نظير ثلاثين قطعة من
الذهب، وفي الفصل الرابع عشر بعد المائتين إلى الفصل الحادى والعشرين بعد
المائتين من إنجيل برنابا تفصيل للأحداث التى وقعت من خيانة يهوذا
الإسخريوطي واتفاقه مع الكهنة نظير ثلاثين قطعة من الذهب وذهابه مع جند
الرومان إلى حيث كان عيسى - عليه السلام - مع أصحابه، ولكن الله رفع عيسى

(١) المائدة، الآيات: ١١٠ - ١١٥

إليه وألقى شبهه على يهوذا الإسخريوطى الذى أخذه الجند وصلبوه، وفى الفصول المذكورة تفصيل لما قاله يهوذا وما رد عليه جند الرومان، وما جاء فى هذه الفصول يتفق فى مجمله مع قول الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ ١٥٦ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ١٥٧ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ١٥٨ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١).

فالله قد نجى نبيه عيسى ورفعته إليه، ورأى جمهور أهل السنة أنه رفع حيا وأنه سيعود إلى الأرض فى آخر الزمان.

الدعوة إلى التوحيد:

دعا عيسى - عليه السلام - كما دعا الأنبياء جميعا إلى توحيد الله بالعبادة، والتأكيد على إفراد الله وحده بالالهية، وقد أكد القرآن الكريم فى كثير من آياته على دعوة عيسى إلى التوحيد؛ نظرا لأن الكثيرين ممن يدعون الانتساب إلى عيسى - عليه السلام - قد ضلوا الطريق، واتخذوا عيسى إلها أو ابن الإله أو ثالث ثلاثة، وقد فند القرآن الكريم هذه الدعاوى الباطلة فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى الكفر الذى وقع فيه النصارى بادعائهم أن عيسى ابن الله أو أن الله ثالث ثلاثة، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ

(١) النساء، الآيات: ١٥٦ - ١٥٨

(٢) الزخرف، الآيات: ٦٣، ٦٤

مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَسَايِنُ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ
عَمَّا يَقُولُونَ لِيَمْسَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ (١).

ويؤكد القرآن على دعوة عيسى إلى التوحيد وتبرئته مما نسب إليه، وذلك في
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيتِي إِلَهُاتِي مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ
مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ
أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشَّهِيدٌ ﴿١٧٧﴾ (٢).

المنهج والأساليب التي استخدمت في عرض دعوة عيسى عليه السلام:

حينما نتمعن النظر في الآيات الكريمة التي تناولت قصة عيسى - عليه السلام -
وأمه الصديقة مريم ابنة عمران نجد أن أكثر من منهج ومن أسلوب استعمل في
عرض أحداث هذه القصة.

١ - ففي الآيات التي تعرض نذر أم مريم وكفالة ركبها لها بعد ميلادها ونشأتها
صومعة قوامه لمجد المنهج العاطفي هو الذي عبر عن نذر أم مريم، ولمجد الأسلوب
المستعمل هو أسلوب التحدث بالنعيم التي أنعم الله بها على أهل هذا البيت
الكريم.

٢ - ولمجد المنهج الحسى سائدا في تعبير القرآن الكريم عن المعجزات التي أنعم
الله بها على نبيه عيسى - عليه السلام - من خلق الطير من الطين بإذن الله،
وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وإنزال المائدة، وكذلك كلام عيسى وهو
في المهد صبيا.

(١) المائدة: ٧٢، ٧٣

(٢) المائدة: ١١٦، ١١٧

ويبدو المنهج الحسى واضحا كذلك فى ظروف حمل مريم وولادتها، حيث
يقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَهَئِذَا إِلَيْكَ بِمِجْنَدٍ النَّخْلَةُ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا
﴿٢٥﴾ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا ﴾ (١).

وفى الرزق الذى كان ركزيا - عليه السلام - يجده عند مريم فى
المحراب: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنفَرِمُ أَنَّ لِيَ هَذَا
قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢)



(١) سورة مريم، الآيتان: ٢٥، ٢٦

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧

الدروس المستفادة من دعوات أولى العزم من الرسل

رسل الله - صلى الله عليهم وسلم - جاءوا جميعا لتصحيح العقائد، وإحقاق الحق، وإزالة العدوان، وتصحيح الأوضاع الجائرة، ونصرة الضعفاء، وتثبيت كرامة الإنسان. ويمكن أن نلخص الدروس المستفادة من دعواتهم - عليهم السلام - فيما يلي :

- ١ - الدعوة إلى التوحيد وبيان بطلان الشرك.
- ٢ - الاستمرار والدأب في محاولة إقناع المعاندين وإظهار خطأ ما هم عليه من التوجه بالعبادة لغير الله تعالى.
- ٣ - التدرج في استعمال الأساليب الدعوية: من التلطف في إظهار الخطأ السائد، ثم كشف مظاهر هذا الخطأ، ثم محاولة بعث التفكير الحر لدى المدعويين للتحرر من ربة تقليد الآباء والأجداد، ثم الانتقال إلى اتخاذ وسائل أكثر وضوحا، ثم تعرية المعاندين بالمنطق السليم، وبالكشف عن انحراف تفكيرهم، ثم تحدى المعاندين بعد ذلك إذا ما أصرروا على كفرهم.
- ٤ - التحلى بالصبر في مواجهة إيذاء المخالفين وسخريتهم.
- ٥ - الاستعداد للابتلاء والتعرض للإيذاء والتغرب أو القتل.
- ٦ - بذل التضحيات مهما بلغت جسامتها في سبيل العقيدة التي آمنوا بها ودعوا إليها.

- ٧ - البحث عن وسائل جديدة تأخذ بيد الدعوة نحو هدفها المنشود .
- ٨ - الثقة فى وعد الله والتأكد من حسن العاقبة .
- ٩ - عدم السماح للعلاقات الأسرية بالتأثير فى سير الدعوة ، أو التطلع إلى مساواة المسىء بالمحسن .
- ١٠ - مواجهة الانحراف فى السلوك والمعاملات بحزم وعزم ، والدليل على ذلك موقف إبراهيم - عليه السلام - من أبيه ، وقومه ، والذي آتاه الله الملك .
- ١١ - الهجرة إلى مناطق أخرى تكون أكثر استعدادا لتقبل الدعوة .
- ١٢ - الإخلاص الذى لا تشويه شائبة فى تحقيق ما دعوا إليه وآمنوا به .
- والواجب على الدعاة أن يأخذوا أنفسهم بهذه الدروس ويتعلموا منها كيف يواجهون الأحداث ، ويردون على المخالفين ردا فيه إقناع ووضوح حتى يأخذوا بأيديهم إلى السلامة والنجاة .



مراحل الرسالة الخاتمة في العهد المكي

تمهيد:

يستوقف الباحث في حياة رسول الله ﷺ أمور غير مألوفة صاحبت نشأته ﷺ وتربيته، فقد ولد يتيما، لم يكن هناك أب يهتم بتربيته، ويورثه ويعلمه ما يحب من مثل وقيم وأخلاق، ولم تعش أمه طويلا حتى ترعاه وتأخذ بيده، وتسدد خطاه، ولكن الله أراد لها أن ترحل عن دنياه وهو في سن السادسة، وقام جده بكفالتها حتى توفي، وهو في سن الثامنة، فتولى أمره عمه أبو طالب، وعلى الرغم من هذه التطورات التي تترك أثرها في نفوس الناشئة إلا أن رسول الله ﷺ قد بهر الناس من حوله ومن جاءوا بعده بما تميز به من أخلاق سامية، وسلوك نقي، ومعرفة واعية؛ لأن الله قد تولى تربيته ورعايته وتوجيهه، ولذلك جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقد قال ابن إسحاق عن نشأة رسول الله ﷺ: «فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقدار الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهها وتكرما»^(١).

وكان مسلك النبي ﷺ في حياته، وطريقة تعامله مع الآخرين، ونظرته المسموح إلى الأشياء والناس، وإنسانيته السامية التي لفتت انتباه الناس إليها في

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج ١ ص ٢٥٠

الإقامة والسفر، واستقامته صبيا وشابا وكهلا، واكتمال مروءته، وعظم أمانته، وصدق حديثه، ومعاونته المحتاجين، وإكرام الضيف، وحمله الضعيف، وتقديمه العطاء الجزيل للمعتمد الفقير، وأخذه لصاحب الحق بحقه، وعفة لسانه، وصفاء سريرته، وإجلاله وهيبته، كل ذلك جعل أهل مكة ينظرون إليه نظرة الإكبار والإجلال، والثقة والتقدير والاحترام، حتى ولو اختلفوا معه فى العقيدة وفارقهم فى الدين، فإن ما عرف عنه من أخلاق عالية، ورجولة كاملة، وأمانة نادرة لا يتطرق إلى شىء منها شك أو ارتياب.

ما سبق وأكثر منه كان بمثابة الوسائل التى هيا الله بها نبيه ﷺ ليحمل الرسالة التى أعده لها وخلقها من أجلها: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (١). وراد ذلك وضوحا وتأكيدا لدى الباحثين فى سيرته ما تناقله الناس عن أحداث عجيبة جرت له فى حياته صبيا وشابا وكهلا، وما تتابعت به الأخبار من تطلع أهل الكتاب وذوى العلم والباحثين عن الحق إلى مقدم النبى الخاتم وقرب زمانه، وتتابع البشائر بقرب ظهوره.

وقد استفاضت الأخبار أن النبى ﷺ لم يكن يرضى عن عبادة الأوثان السائدة فى مكة، وأنه لم يسجد لصنم قط، ولم يحمل لها أى احترام أو تجيل، فطرة ركزها الله فيه منذ نعومة أظفاره، حتى بحيرا لما قال له - وهو غلام فى سن الثانية عشرة - : يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه.

فكان جوابه - صلوات الله وسلامه عليه - : «لا تسألنى باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما».

فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه.

فقال له: سلنى عما بدا لك (٢).

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٤

(٢) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج ١ ص ٢٤٥ تحقيق مصطفى عبد الواحد. وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٦

التمهيد للنبوة:

مرت دعوة النبي ﷺ بعدة مراحل، تتميز كل مرحلة بطابع خاص تنفرد به عما سواها، وتجعلها بمثابة الإعداد والتمهيد للمرحلة التالية، وكانت الفترة التي بدأت منذ ولادته ﷺ إلى أن بلغ سن الأربعين يمكن أن تُسميها فترة الإعداد للنبوة، وقد مر بنا بعض أحداثها ودلالاتها التي صاحبت حياة النبي ﷺ منذ بدأ يفكر فيما حوله مما ألفه الناس من سلوك وتصرفات ينفر منها العقل السليم، وتأبأها الفطرة الصحيحة.

ولكن العلامة المميزة لهذه الفترة بدأت في السنوات السابقة على البعثة؛ حيث تعود النبي ﷺ أن يذهب إلى غار حراء مدة شهر كل عام كان يتزود فيه، ويقضى الليل والنهار مفكراً متأملاً في ملكوت السموات والأرض، متطلعاً إلى أن يهديه الله إلى دين إبراهيم - عليه السلام - وقد كان عزوفه عما انهمكت فيه قريش من لهو ومجون وخمر، ونفوره من هذا اللون اللاهي العابث الغافل من الحياة، داعياً للآخرين أن ينظروا إليه نظرة تقدير وإعجاب زادها إكباراً وإجلالاً ما عرف عنه من مكارم الأخلاق، واستقامة السلوك، والترفع عن السفاسف، حتى أطلقوا عليه لقب (الأمين) وكان رسول الله ﷺ يرجو أن يوفقه الله لدين إبراهيم، وكان تحشه في الغار وتعبده فيه وانقطاعه للتأمل والتفكير الليالي ذوات العدد طوال السنوات السابقة للبعثة خاتمة مطاف هذه المرحلة التي انتهت في سن الأربعين، وبدأت مرحلة النبوة التي بدأت طلائعها في غار حراء لما جاءه الملك وأمره بالقراءة وأخبره أنه رسول الله، على النحو الذي سنتناوله بالتفصيل في المرحلة التالية^(١).

مرحلة النبوة:

بدأت مرحلة النبوة بمجيء الملك إلى النبي ﷺ في غار حراء، وهو في سن الأربعين، وطلبه منه أن يقرأ، كما حدثت بذلك كتب السنن، ونزول قوله

(١) راجع مسار الدعوة في العهد المكي، الطبعة الثانية ص ١٣١، ١٣٢

تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (١). وإخبار جبريل رسول الله ﷺ أنه رسول الله، وتكرار مجيء الملك إلى رسول الله ﷺ ليتأكد أنه ملك من عند الله جاءه بالرسالة؛ وكانت هذه المرحلة في حياة رسول الله ﷺ تتميز بالإعداد الروحي والنفسي للنبي ﷺ والاستعداد لتحمل المسئولية العظمى، ونزل الوحي يؤكد لرسول الله ﷺ هذه الحقيقة: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمُرْسَلُ ۝ قُلْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ يَضَعُ أَوَانْقُصُ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَزَقَ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتَبِلَا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْآنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّا لَنَّا فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَقَبَّلْ إِلَٰهَ تَبَتُّبًا ۝ ﴾ (٢).

ولم يكن رسول الله ﷺ قد أمر بأن يبلغ، واستمرت هذه المرحلة ثلاث سنوات، كانت الدعوة فيها سرا حديثا مع الأقارب والأصدقاء، فأسلم في هذه الفترة خديجة، وعلى، وريد، وأبو بكر - رضى الله عنهم - وأسلم آخرون بدعوة أبى بكر - رضى الله عنه - .

وظل الامر كذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمَدِينَةُ ۝ قُلْ أَذْكُرُ ۝ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝ وَبِإِيَّاكَ نَقْضُ الْوَعْدِ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ ﴾ (٣). عندئذ أدرك رسول الله ﷺ أن مرحلة جديدة قد بدأت، وهي الجهر بالدعوة.

الجهر بالدعوة،

أخذ رسول الله ﷺ يدعو من يتحدث إليه، ومن يلقاه، وكانت الدعوة الفردية هي المظهر العام الذى غلب على الدعوة بعد ما نزلت آيات سورة المدثر على رسول الله ﷺ إلى أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾

(١) الآيات الأولى من سورة العلق، من ١ - ٥

(٢) الآيات الأولى من سورة المزمل، من ١ - ٨

(٣) الآيات الأولى من سورة المدثر، من ١ - ٧

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾. عندئذ صنع رسول الله ﷺ طعاما، ودعا إليه بنى هاشم، وأخذ يعرض عليهم ما جاء به من عند الله، فتصدى له عمه أبو لهب، وحال بينه وبين ما يريد أن يقول، فكرر الدعوة مرة أخرى، وعرض على بنى هاشم دعوته، وطلب إليهم أن يتابعوه على ما جاء به من عند الله تعالى.

ثم نزل قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢). فصعد رسول الله ﷺ الصفا وأخذ ينادى بطون قريش كل بطن باسمه حتى اجتمعوا له، وكان من لم يستطع أن يحضر أرسل من يأتيه بالخبر؛ لأن رسول الله ﷺ كان عندهم موضع الثقة والتقدير، فإذا كان على الصفا ينادى فمعنى ذلك أن هناك أمرا خطيرا جعله يطلق هذا النداء، وما أن اجتمعوا حتى بادروهم بسؤال يقول: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ فَأَجَابُوا جَمِيعًا فِي إِقْرَارٍ عَلَنِي جَمَاعِي: نعم ما جربنا عليك كذبا. ونلفت النظر هنا أن رسول الله ﷺ أراد أن يأخذ منهم إقرارا علنيا جماعيا بصدقه وأمانته، وهذا ما كان؛ لأن ما سيخبرهم به لم يكن أمرا مألوفًا لديهم.

فتابع رسول الله ﷺ حديثه إليهم بعد أن تلقى منهم ذلك الإقرار العلني فقال: «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَبَتِ النَّاسُ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي زُهْرَةَ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَخَذَ يَعِدُّ أَفْخَاذَ قَرِيشٍ فَخَذَا فَخَذَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنَفْعَةً، وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيْبًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ أَبَا لَهَبٍ تَصْدَى لَهُ قَائِلًا: تَبَا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ الْهَذَا جَمَعْتُنَا؟» (٣).

وبهذا الموقف انطلقت الدعوة من الفترة السرية والاعتماد على الاتصال

(١) الشعراء، الآيات: ٢١٤ - ٢١٧

(٢) الحجر، الآية: ٩٥

(٣) نهاية الأرب، ج ١٦ ص ١٩٧

الفردى بين الأصدقاء والأقارب إلى الجهر بالدعوة والإعلان عنها صراحة بلا مواربة .

واتخذت وسيلة جديدة من وسائل الدعوة، تلك هى الخطابة والحديث العام على ملأ من الناس، مع اتخاذ أسلوب الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، الترغيب فى النجاة والفوز بالجنة لمن أطاع وآمن، والترهيب من سوء العاقبة لمن كذب وكفر.

واعتمدت الدعوة أيضا على المنهج العاطفى الذى كشف فيه رسول الله ﷺ عن حرصه عليهم وخوفه على أن يحل بهم سوء العاقبة كما حلت بالذين كذبوا الرسل من قبل .

ولئن كانت قريش لم تنبئه للدعوة وصاحبها قبل هذا الإعلان فإنها قد انتقلت بعد ذلك إلى مرحلة جديدة لنا أن نسميها مرحلة المواجهة، تراوحت من الحوار إلى التهديد .

مرحلة المواجهة:

مرت هذه المرحلة بعدة أدوار: دور التهكم، ودور الحوار، ودور الإغراء ودور التحدى، ودور التهديد، ودور المؤامرة على حياة صاحب الدعوة .

المساومة: أخذ أمر الدعوة يجرى على كل لسان فى مكة بعد الإعلان الذى سبق، وأخذ الإسلام يطرق كل بيت من بيوت مكة، مما جعل زعماء قريش يستشعرون الخطر على مكانتهم، فأنجبه أربعة منهم إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه أن يشتركوا فى العبادة، بمعنى أن يعبدوا الله وأن يعبد رسول الله ﷺ، وكان مما قالوه فى ذلك: «يا محمد: هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله، فإن كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذى بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا فى أمرنا، وأخذت بحظك منه»^(١). فنزل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا

(١) راجع النكت والعيون، للماوردي، ج ٦ ص ٣٥٧

الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ (١)

ومضى رسول الله ﷺ يدعو إلى ربه، وكل يوم يمضى يكسب الإسلام أنصارا جددا، ودائرة أوسع، وزاد قلق أهل مكة، وأصبح أمر الإسلام الشغل الشاغل لهم في مجالسهم.

التهم:

ويبدو من تتابع الأحداث أن ذلك حدث بعد أمور وقعت واستشعرت قريش الخطر من انتشار الدعوة، وازدياد أنصارها، وكان قد جرى بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة كلام تطاولوا فيه على رسول الله ﷺ وعلى ربه، فأخذ يسفه أحلامهم، ويعيب آلهتهم، واشتد الأمر عليهم، ولم يكن لهم شأن يشغلهم إلا التفكير في مواجهة الدعوة؛ حتى اجتمعوا يوما وقال بعضهم لبعض: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم (٢).

وفيما هم يتداولون في أمرهم وماذا يصنعون إذ أقبل رسول الله ﷺ فاستلم الركن، ثم طاف بالبيت، فأذوه ببعض الكلام، فعرف ذلك في وجهه، وكلما حاذاهم غمزوه بما يسىء من القول، وفي المرة الثالثة وقف رسول الله ﷺ وقال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح».

وكأنما نزلت كلماته عليهم نزول الصاعقة، وسادهم وجوم كأنما على رؤسهم الطير، وانقلب الوضع حتى إن أكثرهم تحريضا عليه أخذ يترضاه، ويقول: انصرف يا أبا القاسم راشدا؛ فما كنت بجهول (٣).

ولما انصرف رسول الله ﷺ أخذ يلوم بعضهم بعضا، ويعيب كل منهم على

(١) سورة الكافرون.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج ١ ص ٤٧١ تحقيق مصطفى عبد الواحد.

(٣) راجع سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٢٩٠ تحقيق مصطفى السقا وغيره، والسيرة النبوية لابن كثير، ج ١ ص ٤٧١.

الآخر تخاذله أمام وعيد رسول الله لهم، وأخذ يغري بعضهم بعضا بالشر، فلما التقوا برسول الله ﷺ اجتمعوا عليه، وأخذوا يقولون له: أنت الذى تقول كذا وكذا؟ يقصدون عيب آلهتهم. وهو يواجههم ويقول: نعم أنا الذى أقول ذلك. حتى إن أحدهم أخذ بمجامع رداءه ﷺ حتى قام أبو بكر دونه وهو يبكى لما نزل برسول الله ﷺ ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟!

وتتابع أذاهم لرسول الله ولمن آمن، حتى إن أبا جهل ذات يوم لقيه ﷺ وسبه سباً قبيحاً، ولم يرد عليه، ورأت ذلك المشهد جارية من أهل مكة؛ ثم لم تلبث أن رأت حمزة عم النبي عائداً من صيده، فأخبرته بما رأت، فما كان من حمزة إلا أن اتجه إلى مجلس قريش حول الكعبة وعمد إلى أبي جهل فضربه بقوسه ضربة أصابته إصابة بليغة قائلاً: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟! فرد ذلك على إن استطعت. فتهياً رجال من بنى مخزوم لينتصروا لأبي جهل، فقال لهم: دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وذلك أن أبا جهل أدرك أن الأمر سيتسع وأن انتصار بنى مخزوم له سيدفع بنى هاشم والمنافاة أن ينتصروا لحمزة، وبذلك يكون قد ساعد على إيجاد أنصار جدد لرسول الله ﷺ وهذا مالا يريده ولا يحب أن يكون.

ولم يمض هذا الحادث بدون نتائج، فقد أدركت قريش أن تماديها فى إساءتها سيكون له رد فعل غير سار بالنسبة لهم، وأن عليهم أن يحاولوا البحث عن أسلوب آخر قد يكون أجدى عليهم مما سلوكوه حتى الآن، فقد أدركوا يقيناً أن العنف والأذى لا يؤديان إلى ما يريدون، وقد كان أحدث نتائج هذا النهج غير السديد إسلام حمزة، وهو من هو فتوة وعزة بين رجالات قريش، عند ذلك فكروا فى أسلوب الإغراء بالمال والجاه والسلطان، وذلك أنهم كانوا فى مجتمع تغلب عليه المادة، ويظنون أن من يقوم بعمل ما إنما يريد أن يجنى من ورائه مالا أو ملكاً أو سلطاناً، ومن أجل ذلك حاولوا أن يغروا رسول الله ﷺ بهذه الأشياء التى يلهث وراءها عباد المادة الغافلون عن القيم العليا التى دعا إليها الأنبياء.

فبينما كان عتبة بن ربيعة جالسا فى نادى قومه، وكان سيدا فيهم، وكان رسول الله ﷺ جالسا وحده فى المسجد إذ عرض عتبة على قريش أن يقوم إلى رسول الله يعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، ويكف عما يدعو إليه، فوافقوه على اقتراحه، فذهب إليه، وقال: يا ابن أخى: إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أثبت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد اسمع.

قال: يا ابن أخى: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ويدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. ورسول الله ﷺ منصت له حتى انتهى، فقال: أقدر فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى. قال: أفعل.

وأخذ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا أَفُلُونَا فِي أَكْثَرِهِ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءَاذِنَا وَقُرْءَانٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ ۝ فَاَعْمَلْ إِنشَاءً عَمِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۝ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ لَّكُم مَّا تَدْعُونَ إِلَىٰ تَخْلُقُ الْإِنسَانَ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْإِنسَانَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَٰدًا ذَا ذِكْرٍ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رُءُوسَىٰ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا

أَقْوَمَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ يَلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١﴾.

وتقول إحدى الروايات: إن رسول الله ﷺ حينما وصل إلى هذه الآية اضطرب عتبة ووضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم إلا توقف.

وتقول رواية أخرى: إنه استمر يقرأ حتى وصل إلى آية السجدة فسجد، ثم قال: أسمعت يا أبا الوليد؟ قال: سمعت. قال: فانت وذاك؟^(١).

وكان رد الفعل واضحاً على ملامح وجه عتبة حتى قال أصحابه بعضهم لبعض لما رأوا من سمات التغير على وجهه، وهو في طريقه إليهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم سأله: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به^(٢).

غير أن هذا الصوت العاقل لم يجد استجابة، فردوا عليه رداً فيه استخفاف برأيه وعدم ثقة فيه، فقالوا: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه» وإزاء هذا الرفض منهم لما أشار به قال: «هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم».

وإزاء هذا الموقف من تلك المرحلة نرى أن الإغراء بالجاه والمال والسلطان من جانب قريش كان الوسيلة التي ظنوا بها أنهم يوقفون مسيرة الدعوة، وأن عتبة

(١) سورة فصلت الآيات: ١ - ١٣ على الرواية الأولى ٣٧ على الثانية.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٣، ٢٩٤ راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٥٠٢.

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٤.

استعمل من جانبه المنهج العاطفى فى محاولة منه لاستمالة رسول الله ﷺ حين صدر حديثه إليه بقوله: «يا ابن أخى» معبرا عن شرفه بينهم فى قوله: «إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة، والشرف فى النسب».

وحينما نصغى متأملين إلى رد رسول الله ﷺ بقراءته صدر سورة فصلت نجد أن الآيات الكريمات قد اشتملت على المنهج العاطفى فى مطلعها، وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكل التروغيب والترهيب، ثم انتقلت الآيات إلى المنهج العقلى حينما وجهت إلى آثار القدرة الباهرة فى خلق السموات والأرض وما فيهما بمزج ذلك أيضا بالمنهج العاطفى والمنهج الحسى مما يدفع من له عقل أن يستجيب، وهذا ما كان من عتبة لولا أن الشقاء غلب عليه، فسار فى طريق الضلالة مسaire لقومه.

المرج بين الإغراء والتهديد:

ونئن كان الموقف السابق من تلك المرحلة كان يتسم بالحوار الهادئ وعدم التحدى من جانب ممثل قريش فإن المواقف التالية قد حاولت التأثير من جانب التخويف والتهديد لمن يقف مؤازرا لرسول الله ﷺ كما صنع زعماء قريش حينما ذهبوا إلى أبى طالب، ولكننا سنتخطى هذا الموقف، ونعرض لموقف أكثر دلالة على العناد من جانب قريش، والإصرار على الكفر، ويتمثل ذلك الموقف فى ذهاب جماعة من زعمائهم إلى رسول الله ﷺ يحاورونه ويعرضون عليه ما سبق عرضه من عتبة، ثم يعقبون على ذلك - بعدما رأوا أن الإغراء لا يجدى - بالتحدى ومحاولة التعجيز الممزوج بالإصرار على الكفر والعناد مما ستوضح معالمة من خلال عرض الحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله ﷺ ذلك أن أربعة عشر من زعمائهم اجتمعوا حول الكعبة، ودار الحديث بينهم حول رسول الله وما يدعو إليه، وموقفهم منه، واستقر رأيهم على أن يبعثوا إليه من يدعو ليتحدثوا معه، وفيما يلى ما أورده ابن هشام حول هذا المجلس وما دار فيه: «... ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد

اجتمعوا لك ليكلموك فاتهم . فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم (مشقتهم) حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد: إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا - فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكتك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجثن رثيا - فرجما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جثت بما جثتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» (١).

وهنا انتهى الجزء الأول من الحوار، وفيه عرضوا الأسباب التي دعتهم إلى حوار رسول الله ﷺ وقدموا المقترحات التي يظنون أنها قد تكون الدافع وراء ما جاءهم به، ونلاحظ أنها تتفق مع ما عرضه من قبل أبو الوليد، وأنها تنبعث من تفكير مادي نفعى بحت، وأن رسول الله ﷺ رد عليهم مبينا بوضوح أن ليس هناك شيء مما ظنوه له دخل فيما جاء به، وأن ما جاء به إنما هو رسالة من الله يبغي من ورائها هدايتهم، وجلب الخير لهم، ونجاتهم مما يحل بالمكذبين من العقاب والعذاب، فإن استجابوا فذلك هو الخير لهم، وإن أعرضوا صبر عليهم .

وهنا نلاحظ أيضا أن الحوار لم يكن فيه منهم خشونة ولا هجوم، وأن رسول

(١) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٢٩٥، ٢٩٦

الله ﷺ قد رد عليهم ردا مقنعا، مظهرا لهم حرصه على نجاتهم وجلب الخير لهم. وكذلك نلاحظ امتزاج المنهج العقلي بالمنهج العاطفي في رد رسول الله ﷺ عليهم، والتأكيد الواضح أن ليس هناك هدف دنيوي مما جرى في أذهانهم له أدنى تأثير فيما جاءهم به. وكان المنتظر بعد هذا الرد من رسول الله عليهم أن يسألوه عن معالم هذه الدعوة التي جاء بها، وعن مظاهر الخطأ في عقائدهم ومنهج حياتهم، ولكن شيئا من ذلك لم يكن؛ لأنهم لم يكونوا يريدون من وراء هذا الحوار الوصول إلى الحق، وإنما كان هدفهم أن يوقفوا الدعوة عن بلوغ غاياتها، ويصرفوا صاحبها عن المضى فيها، وقد ظنوا أن التلويح بالإغراء المادى والسلطان والسيادة قد يكون موصلا لهم إلى أغراضهم، فلما سمعوا الإجابة الواضحة وأن شيئا مما جرى في أذهانهم ليس له أدنى تأثير انتقلوا إلى التحدى، مما يكشف عن عدم انتفاعهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ ويدل على عنادهم وإصرارهم على كفرهم، وأن الوصول إلى الحق لا يعينهم في قليل أو كثير، فأخذوا يعرضون أمورا تدل على فقدانهم لتوازنهم.

التحدى:

عندئذ قالوا: «يا محمد: إن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم - صلوات الله وسلامه عليه -: «ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغتمكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بينكم»

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك به عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعل بهكم فعل».

قالوا: يا محمد: أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألتك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك، فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما تعلمك هذا رجل من أهل الإمامة يقال له: الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعدرنا إليك يا محمد، وأنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا^(١)... إلخ ما قالوا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحوار وما اتسم به القرشيون من عنت واستفزاز في سورتين من سوره، جاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ بِكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٦، ٢٩٧.

وَالْمَلَكُ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّيَّتٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِإِيفَائِكَ
حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ (١)

وجاء في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي
الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُودُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ
لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَشَاءُونَ إِلَّا أَجْلا مَسْخُورًا ﴿٨﴾
أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي
إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّةً يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ (٢)



(١) الإسراء، الآيات: ٩٠ - ٩٣

(٢) الفرقان: ٧ - ١١

وسائل قريش في الصدع عن الدعوة

وقد اتخذت المواجهة بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة أشكالا شتى لا يمكن أن نستوعبها هنا، ولكننا سنشير إلى ما يتحمله هذا البحث مما يشير إلى أبرز وسائلهم التي استعملوها لإيقاف الدعوة وصرف صاحبها عنها، ومن ذلك أنهم فكروا في أن يحدثوا الناس بأمور ظنوا أنهم يصرفونهم بها عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ وكان صاحب هذا الاتجاه النضر بن الحارث، حيث قال: يا معشر قريش: إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش: فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم^(١).

وكان النضر من أكثر الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فكان يتبع المجالس التي يجلس فيها رسول الله ﷺ ليذكر الناس بالله، ويحذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، كان النضر يجلس إليهم بعد ذلك ويحدثهم بأخبار ملوك الفرس، ويقول: أنا أحدثكم أحسن من حديث محمد ﷺ محاولا أن يصرفهم عن الاستماع لرسول الله ﷺ وهو الذي نزل فيه قوله

(١) راجع سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٢٩٥ وما بعدها.

تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١).

ويبدو جليا من حديث النضر أن صدق رسول الله وأمانته وما تحلّى به من اخلاق عالية لم تكن محل نزاع، وإنما كان الدافع وراء هذا الموقف العدائي هو الحسد والتنافس الأسرى، وأن ما عرف عن رسول الله ﷺ كان يمثل أسلوب القدوة الحسنة، فيسارع الذين لم يفسد الحسد فطرهم إلى الاستجابة له واتباع ما جاء به.

ولم تتوقف قريش عن البحث عن وسائل أخرى يصرفون بها الناس عن اتباع رسول الله ﷺ والاستماع إليه، فكانوا إذا جاء موسم الحج كونوا جماعات منهم تطوف على مضارب القبائل وتحذّروهم من رسول الله، وجماعات أخرى تراقب تنقلاته بين القبائل، فكلما جلس إلى قبيلة من القبائل جلسوا إليها بعده وأخذوا يحذرونهم منه، ويقولون: نحن أهله وأعلم به منكم. وتتبعوا من يؤمن به بالإيذاء والعدوان والاضطهاد مما فاضت بأخباره كتب السير، وذهبوا إلى عمه أبي طالب يطلبون منه أن يجعله يكف عن دعوته، ويعرضون عليه أن يعطوه شابا من قريش ويسلمه إليهم، وأخيرا هددوه وأعلنوه بمحاربتهم له، حتى إن أبا طالب استدعى رسول الله وطلب إليه أن يتوقف؛ لأنه لا طاقة له بعداوة قريش، ولكن رسول الله يجيبه في حزم ووضوح قائلا: «والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» بعد أن دمعت عيناه، ويؤخذ عمه بما رأى من تصميمه وعزمه وبقينه وصدقه فيقول له: اذهب يا ابن أخي فافعل ما شئت، فوالله لن أسلمك لهم أبدا.



(١) لقمان، الآية: ٦

الهجرة إلى الحبشة ودوافعها ونتائجها

وتشدد قريش من إيذائها واضطهادها لمن يدخل الإسلام، وتذيقهم العذاب الشديد، ويتجهون إلى رسول الله يسألونه أن يدعو الله ليخفف عنهم، ويشير عليهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة قائلا: «إِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ» ويتجه المسلمون إلى الحبشة فرارا بدينهم، وكان في طليعتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وابن عمه جعفر بن أبي طالب. ويجد المسلمون مأمنا في جوار النجاشي ملك الحبشة، ولكن قريشا لم تكد تشعر بذلك حتى بدأت تفكر في طريقة تعيد بها هؤلاء ليكونوا تحت سمعها وبصرها تعذيبهم وتضطهدهم؛ حتى يكونوا عبرة لغيرهم، فتبعث بوفد إلى النجاشي محمل بالهدايا له ولرجاله مزودين بتوجيهات أن يعملوا على إعادة المهاجرين من غير أن يتمكنوا من عرض قضيتهم على الملك، ولكن الملك يأبى أن يستجيب لذلك، ويصر على أن يسمع منهم، فيقول له جعفر - ردا على تساؤله: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ - أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا

بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجبنا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فسأل النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟

قال جعفر: نعم

فقال النجاشي: فاقرأه على.

فقرأ عليه أول سورة مريم، فلم يكذب يسمعها حتى بكى وسالت دموعه على لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

ثم علق النجاشي على ما سمع قائلاً: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة^(١).

ثم اتجه بالحديث إلى وفد قريش الذي كان يتألف من رجلين هما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة قائلاً: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما.

وبما عرضه جعفر على النجاشي يتبين ما جاء به الإسلام من تصحيح العقيدة وإقامة العلاقات الإنسانية على أساس من العدل والرحمة، ودعوة الإسلام إلى السمو الخلقى، والسلوك المستقيم.



(١) راجع سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٢٣٥، ٢٣٦.

المقاطعة ثم بيعة العقبة والهجرة

وتتابع قريش حربها للدعوة وصاحبها، فتكتب صحيفة تعلقها في الكعبة تعلن فيها مقاطعة رسول الله ومن يناصره اقتصاديا واجتماعيا لمدة ثلاثة أعوام، حتى أكلوا ورق الشجر، إلى أن أذن الله فانهارت المقاطعة، ورسول الله ماض في دعوته لا يصرفه عنها صارف من إيذاء أو اضطهاد أو مصادرة، إلى أن هيا الله جماعات من أهل يثرب التقى بهم في مواسم الحج أكثر من مرة، وتوجت هذه اللقاءات ببيعة العقبة الأخيرة التي فتحت الطريق أمام المسلمين إلى أن يجدوا ملاذا آمنًا يعبدون الله فيه من غير اضطهاد ولا مصادرة، والتي كانت مقدمة لهجرة المسلمين إلى المدينة، وهجرة رسول الله إليها بعد ذلك.

وقد جن جنون قريش لما علمت بهذه البيعة وأدركت مدى الخطر الذي يتهددها إذا استطاع المسلمون أن يجدوا لهم ملاذا هناك، وإذا انتقل النبي إليهم؛ لذلك أخذوا يفكرون في وسائل أخرى، ف عقدوا اجتماعا على جانب كبير من الأهمية في ناد لهم يعرف بدار الندوة، وتداولوا فيه الرأي: ماذا يصنعون مع رسول الله حتى يقضوا على هذه الدعوة التي هزت مجتمعهم هذا عنيفا؟ واجتمع رأيهم على قتله على يد مجموعة منهم تمثل كل بطون قريش؛ حتى يشعر بنو هاشم أنهم لا طاقة لهم بحرب قريش كلها، فيرضوا بالدية.

ولكن الله يخبر نبيه بما بيته كفار قريش، ويأمره بالهجرة فيخرج عليهم وهم واقفون أمام بابه ينتظرون خروجه لينفذوا مؤامرتهم، ويغشى الله أبصارهم فلا يبصرون، ويخرج رسول الله ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ

أَعْلَنَّا فِيهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ
سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ (١)

ومن متابعة هذه المواجهات يتبين لنا مدى ما تحمله رسول الله ﷺ من
مصاعب، ومدى ما تعرض له من مضايقات، وما اعترضه من عقبات تغلب عليها
بالصبر والتحمل والسعى الحثيث في تبليغ دعوته، وضرب المثل بالقدوة الحسنة
في التعالي عن الصغائر والحرص على مكارم الأخلاق، والرغبة الشديدة في
جلب الخير لمن يدعوهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، حتى إنه كان يحزنه عدم
هدايتهم كما عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ
عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٢). ويتبين الإصرار على الوصول
بالدعوة إلى غاياتها من ردوده على ما تعرضه فريش عليه من إغراء، وعلى عمه
حين قال له: «وَاللَّهِ يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي عَلَىٰ أَنْ
أُتْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّىٰ يُظْهَرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ».

وهنا يتعلم الدعاة من منهج رسول الله ﷺ كيف يواجهون الصعاب، وكيف
يعتصمون بالصبر، وكيف يتابعون دعوتهم حتى يحقق الله أهدافهم.



(١) يس، الأيتان: ٨ ، ٩

(٢) الكهف: ٦

مراحل الدعوة في العهد المدني

في الطريق إلى المدينة جرت أحداث جسام بدا فيها جليا حفظ الله سبحانه لنبيه ﷺ وعنايته به، إلى جانب نماذج الصدق والوفاء التي بدت ممن صاحب رسول الله ﷺ في رحلة الهجرة وبخاصة موقف الصديق وإعداده للرحلة بإحكام وتضحية بالغين، فبعد أن أعد الراحلتين والدليل الذي سيصحبهما في هذا السفر الشاق، لم يكد يصل بهم السرى إلى غار ثور حتى نزل أبو بكر إلى الغار أولا ليتأكد خلوه من أى شيء يؤذى، فسد كل ما فيه من جحور خشية أن يخرج منها شيء يسبب أذى لرسول الله ﷺ وبقي شقان فأدخل فيهما رجله، وبينما هما بالغار إذ لدغ أبو بكر من الجحر الذي وضع رجله فيه ولكنه تماسك خشية أن يتنبه رسول الله ﷺ وسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فتنبه رسول الله ﷺ ولما عرف الأمر تفل على موضع اللدغ فذهب ما به من ألم. (١) ولما وصل رجال قريش إلى فم الغار اشتد الخوف بأبي بكر فطمأنه النبي ﷺ قائلا: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما! وكان أبو بكر قد عبر عن تخوفه بقوله: «لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا» وإلى هذا الموقف يشير القرآن الكريم في سورة التوبة ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِثَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

(١) راجع الرياض النضرة، ج ١ ص ١٠٤

(٢) التوبة: ٤٠

والجنود التي أشارت إليها الآية الكريمة هي أن الله سبحانه أرسل عنكبوتا فنسجت خيوطها على فم الغار، وأرسل يمامة فوضعت بيضها على نسيج العنكبوت.

وكان أبو بكر أثناء الطريق أحيانا يتقدم على رسول الله ﷺ، وأحيانا يتأخر وأحيانا يكون عن يمين وأحيانا عن شمال، فلما سئل عن ذلك أجاب: كنت إذا تذكرت المهاجم تقدمت، وإذا تذكرت المتابع تأخرت، وإذا تذكرت الآتي من اليمين أو من الشمال انتقلت إلى اليمين أو الشمال؛ لأتلقى بنفسى أى مفاجأة.

وفى الطريق نزلا على خيمة أم معبد، وهناك رأت من كرامة الله لنبه أن در اللبن فى شاتها الحائل العجفاء حتى شرب النبي ﷺ ومن حضر، وأبقى الإناء ممتلئا باللبن مما أثار دهشة زوجها لما عاد فأخبرته بما رأت. وأغررت الجائزة الضخمة التي أعدتها قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ سراقا فانطلق فى أثر الراكب الكريم لكن فرسه عثرت به مرتين قبل أن يقترب من رسول الله ﷺ وفى الثالثة ساخت قوائم الفرس فى الأرض وانحدر عنها سراقا، فأدرك أن رسول الله ﷺ محفوظ من ربه، فطلب إليه أن يدعو له ووعد أن يصرف الطلب عنه، وأعطاه النبي كتابا كتبه أبو بكر جاء به بعد فتح مكة: بعد غزوة حنين.

وكانت أخبار هجرة رسول الله ﷺ قد وصلت إلى أهل المدينة فكانوا يخرجون كل صباح يرقبون قدومه حتى تلجئهم حرارة الشمس إلى الدخول فى بيوتهم، وما إن وصل حتى رأت المدينة يوما لم تر مثله فرحا وبشرا وسرورا بمقدمه ﷺ مما أفاضت كتب السير فى وصفه وحفاوتهم به صلوات الله عليه.

بناء المجتمع الجديد

ما كاد رسول الله ﷺ يستقر به المقام فى المدينة حتى أخذ يفكر فى إقامة المجتمع الذى تكون بعد الهجرة، ولندرك أهمية هذه المرحلة فى الدعوة علينا أن نعرف الفصائل التى يتكون منها المجتمع الذى يريد الرسول ﷺ بناءه.

يتكون المجتمع من الأنصار، ومن المهاجرين، ويعيش بجوارهم جماعات من اليهود.

أما الأنصار فهم فريقان رئيسيان: الأوس، والخزرج، وكانت الحرب بينهما قبل الإسلام لا تنتهى إلا لتبدأ من جديد ريثما يأخذ كل فريق لها عدته، حتى لقد قيل: لو لم يتدارك الإسلام الأوس والخزرج لأفنى بعضهم بعضاً، ولهذا كان الإسلام إنقاذاً للفريقين من الهلاك، وقد جمع الإسلام كلمتهم وألف بينهم، وقد امتن الله عليهم بما أنعم عليهم من الألفة فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ (١). وجمع قلوبهم على المودة أمر لا يقدر عليه إلا الله مقلب القلوب؛ ولذلك يقول لنبه: ﴿وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢). وهكذا جمع الله قلوب الأوس والخزرج، وصار ولاؤهم الأول للعقيدة التي آمنوا بها.

وأما المهاجرون فقد تركوا دورهم وأموالهم ونزلوا ضيوفاً على إخوانهم من الأنصار، وشاركوهم في بلدتهم، بعد أن وجدت العقيدة بينهم، وقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في تجربة لم يعرف التاريخ لها سابقة ولا لاحقة، وقد فتح الأنصار قلوبهم ودورهم لإخوانهم المهاجرين حتى كان الواحد منهم يعرض على أخيه أن يشاركه في ماله عن رضا وطيب خاطر، وقد أثنى القرآن الكريم عليهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِجُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣).

وهكذا أصبح الولاء للعقيدة التي تجمع القلوب بعدما كان الاعتزاز بالانتماء للقبيلة هو التقليد السائد بين الجميع، فصرف الله عنهم ذلك وصار لسان حالهم ينشد:

أبي الإسلام لا أب لى سواه . . إذا افتخروا ببيكر أو ثميم

(١) آل عمران: ١٠٣

(٢) الأنفال: ٦٣

(٣) الحشر: ٩

ومن قبل ذلك بنى رسول الله ﷺ المسجد ليكون مركز التجمع وتلقى تعاليم
الروحى وتأصيل العلاقة بين المؤمنين وخالقهم - سبحانه وتعالى - وقد كان بناء
المسجد فرصة ذهبية بدا فيها التعاون الصادق بين المسلمين من مهاجرين وأنصار.
وكان لابد لهذه الأمة الناشئة أن تقيم أساسا للعلاقة بينها وبين اليهودية التى
تعيش حول المدينة، فنظم رسول الله ﷺ العلاقة بين المسلمين واليهود فى وثيقة
لم يعرف التاريخ لها مثيلا من قبل، أعطى فيها لليهود حرية العقيدة وحرمة
النفس والمال على أساس من التعاون بينهم وبين المسلمين، ولكن اليهود لم
يراعوا ذلك ولم يحافظوا عليه.
والخلاصة أن رسول الله أقام المجتمع على أساس من العقيدة والإخاء
والتعايش بين الأجناس.



حماية المجتمع ورد العدوان

بعد أن أكمل النبي ﷺ تنظيم المجتمع ووضع أسسه على ضوء العقيدة التي آمن بها الجميع كان لابد لهذا المجتمع الناشئ من حماية ونظام دفاعي يرد عدوان الطامعين، ويدفع عادية المهاجمين ويخيف المتربصين المتآمرين، ونزل تشريع الجهاد للقيام بهذه المهام التي تحتاجها الدعوة لتمضي في طريقها، وجاء الوحي يأذن للنبي ﷺ بالقتال في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢١٦﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَابُكُمْ وَفُتِنَتْ صَلَاتُكُمْ وَمَسْكِنُهُمْ لَفُتِنَ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١٧﴾ (١).

وقد امتدت هذه المرحلة عدة سنوات شهدت عدة غزوات وعدة سرايا، كان أبرزها غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، إلى جانب محاولات المتربصين الذين سطوا على سرح المدينة، وبعض الغدرة الذين جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن والإسلام، فغدروا بهم، كما كان من أصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، وكان أشد هذه الظروف حرجا في غزوة الخندق، لما جاءت قريش وغطفان لحصار المدينة، وغدرت بنو قريظة وانضموا إليهم، مما جعل المسلمين يواجهون أعداء من جهات متعددة، وقد صور القرآن الكريم هذه الظروف العصيبة في سورة الأحزاب حيث يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَبَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

(١) الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

وَتَقُتُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾.

وقد واجه النبي ﷺ والمسلمون هذه الفترة بعزم ثابت ويقين لا يتزعزع في نصر الله سبحانه، وتضحية بالنفس والمال لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وحسبك أن تسمع لسعد بن معاذ - رضى الله عنه - وهو يبدي لرسول الله ﷺ استعداد الانصار حين يقول: يا رسول الله: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواريقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فاطعن حيث شئت، وصل جبل من شئت، واقطع جبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لو سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله (١).

وقد شهدت هذه المرحلة من بطولات المسلمين وتفانيهم في سبيل عقيدتهم ما صار مضرب الأمثال في كل العصور.

وقد تميزت هذه المرحلة باستعمال عدة وسائل أبررها وسيلة الجهاد، وكان أسلوب القوة هو الأسلوب الأمثل في مواجهة العدوان والمؤامرات، وعرف المسلمون وسائل دفاع لم تكن معروفة لدى العرب من قبل، ومنها حفر الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي.

(١) الأحزاب، الآيات: ١٠ - ١٣

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦١٥ تحقيق الشعار وآخرين. وراجع زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ٣ ص ١٧٣ تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

ومنها توهين صفوف العدو بيث الفرقة بين صفوفه وزرع الشك في نفوس جماعات المهاجمين كما صنع نعيم بن مسعود الأشجعي في موقعة الأحزاب (الحندي) حينما جاء إلى النبي ﷺ معلنا إسلامه، ولم يعرف به أحد من قومه غطفان وحلفائهم من قريش ويهود بنى قريظة، واستطاع بما أوتيته من قدرة وحنكة أن يجعل كلا من فرقاء الأحزاب ينظر إلى الآخرين نظرة توجس وشك بخطته الذكية التي وجهه إليها النبي ﷺ لما قال له: «إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، إنما الحرب خدعة».

وقبل كل ذلك وبعده تدخلت عناية الله ونصره، فأرسل جنوده من الملائكة في غزوة بدر، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلِ النَّفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ١٢٤ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلِ النَّفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١٢٦﴾ (١).

وفي غزوة الأحزاب أرسل الريح على قريش وغطفان فكفأت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأصابتهم بالهلع حتى بادروا بالرحيل، وفي ذلك يقول الله - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ١٢٧﴾ (٢) حتى انصرفوا خائبين وكفى عباده المؤمنين القتال بما أرسل من جنوده المريعة مثل الرياح والتي لم تر مثل الخوف والفرع والرعب الذي زرعه في قلوب بنى قريظة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَدُلُّوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ١٢٨﴾ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ١٢٩ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ

(١) آل عمران، الآيات: ١٢٣ - ١٢٦

(٢) الأحزاب، الآية: ٩

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ
وَدَيَّرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢﴾

وهكذا أذنت هذه المرحلة بالانتهاء بعدما مكن الله لنبيه ﷺ ورد أعداءه على
أعقابهم خائبين، بعدما كانت أحلامهم فى النصر والقضاء على الدعوة تراودهم
فردوا خائبين كما قال الله سبحانه .

ولذلك قال النبي ﷺ: «لا يغزونا بعد هذا» .

وجاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة التى يمثلها صلح الحديبية، وما أعقبها من
نتائج تصورها الصفحات التالية .



(١) الأحزاب، الآيات: ٢٥ - ٢٧

صلح الحديبية

يمثل صلح الحديبية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة؛ إذ كانت نهاية لفترة المواجهة التي كان الاهتمام فيها موجهاً إلى حماية الدعوة ورد العدوان، وكانت بداية لفتح الطريق أمام القبائل لتتعرف على الإسلام عن كثب، والانتقال بالدعوة إلى مرحلة العالمية التي تعتبر إحدى نتائج هذا الصلح.

وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، لما توجه النبي ﷺ ومن صحبه من المسلمين قاصدين العمرة، ولكن قريشا تصدت لهم وأبت عليهم أن يدخلوا مكة؛ خشية أن يظن العرب أنهم دخلوها عنوة، ولما كان النبي ﷺ حريصاً على عدم إراقة الدماء فقد سلك كل السبل التي تؤكد لقريش أنه إنما جاء لزيارة البيت، ولا يريد حرباً، ولا يحق لقريش أن تصد أحداً عن زيارة البيت، وعلى الرغم من أنه أكد ذلك لكل من جاء من قريش يتعرف ما عند رسول الله ﷺ فقد أرسل عثمان بن عفان إلى مكة يخبرهم أنه لا يريد إلا زيارة البيت، وانتهى تردد الرسل بين قريش ورسول الله ﷺ إلى عقد صلح ينص على عدة بنود، كان من أهمها:

- ١ - أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنوات يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.
- ٢ - وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل.
- ٣ - وأن من جاء المدينة من غير إذن أهله من قريش أعيد إليها، ومن أتى قريشا من عند رسول الله لا ترده.

٤ - وأن يعود النبي ﷺ وأصحابه عامه هذا ثم يرجع في العام القابل، يقيم ثلاثا، وليس معهم إلا سلاح المسافر.

ولم يتقبل المسلمون هذه النتائج بالرضا، بل كانوا غاضبين منها، وجرت بينهم تساؤلات وبين رسول الله ﷺ تعبر عن عدم رضاهم، لكن رسول الله ﷺ كشف لهم عن الحكمة في قبوله هذه الشروط التي رأوها غير عادلة، ورأى فيها نتائج طيبة مما ستكشف الأحداث عنها فيما بعد.

نتائج صلح الحديبية:

فما هي النتائج التي أسفر عنها هذا الصلح؟:

أولها: أن قريشا اعترفت لأول مرة بوجود قوة مستقلة في جزيرة العرب هي قوة المسلمين، وسلمت بحق أى قبيلة أن تختار الانضمام إلى رسول الله ﷺ، وترتب على ذلك أن أعلنت خزاعة دخولها في عهد رسول الله ﷺ.

ثانيها: أن الناس أخذوا يتلاقون ويتحدث بعضهم إلى بعض بناء على أمر الصلح الذي أبرم، وكان من نتائج ذلك أن دخل في الإسلام في مدة عامين أكثر ممن دخل فيه من قبل، وهذه نتيجة إيجابية لم يكن المسلمون يدركون فائدتها الدعوية.

ثالثها: أنا أبا بصير جاء المدينة مسلما، ثم رد حسب الاتفاق، واستطاع أن يتخلص ممن جاءوا يعيدونه، واتخذ له مركزا على ساحل البحر، وتجمع فيه كل من كان على شاكلته، حتى كونوا قوة تعترض تجارة قريش وتصيبها بالقلق، حتى اضطرت إلى أن تطلب إلى رسول الله ﷺ أن يستبقى عنده من يأتيه من أهل مكة.

رابعها: أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط لما هاجرت إلى المدينة جاء أخوها يطلبان ردها، فأخبرهما رسول الله ﷺ أن الشرط خاص بالرجال ولا ينطبق على

النساء، ونزل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (١).

خامستها: أن الله سمى صلح الحديبية فتحا مبينا وأنزل على رسوله ﷺ سورة الفتح، وقال عنها الرسول ﷺ: «إن الله أنزل على سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس».

سادستها: أن هذا الصلح فتح الطريق لتطبيق عالمية الدعوة حيث بعث رسول الله ﷺ يكتبه إلى حكام العالم يدعوهم إلى الإسلام.

سابعتها: أنه كان تمهيدا لفتح مكة حيث نقضت قريش العهد بمساعدتها بنى بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ فكان ذلك سببا مباشرا لفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

وهكذا نرى أن الدعوة قد استفادت من هذا الصلح فوائد متعددة عبرت عنها النتائج التي رصدناها.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن يقال إن الرسول ﷺ استعمل وسائل جديدة اقتضتها الظروف التي واجهته.

١ - منها التفاوض والحوار رغبة في إبلاغ الخصوم أنه لا يريد حربا ولا مواجهة وإنما يريد زيارة البيت.

٢ - ومنها عقد المعاهدات مع المخالفين مادام ذلك في صالح الدعوة، وقد رأينا الثمار الإيجابية التي تكشف عنها هذه المعاهدة.



(١) الممتحنة، من الآية: ١٠

عالمية الدعوة

بعد أن تم صلح الحديبية بدأت مرحلة جديدة من مراحل الدعوة، تلك هي مرحلة العالمية، ذلك أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد آمن بمقتضى بنود الصلح من مهاجمة قريش للمدينة؛ ولذلك بدأ يعد كتبه ويبعث رسله إلى حكام العالم يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس حاكم مصر، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة، والمنذر بن ساوى ملك البحرين.

وكان ذلك على الأرجح في المحرم من السنة السابعة من الهجرة، وقد يتساءل البعض: هل عالمية الدعوة لم تقرر إلا في ذلك التاريخ؟ أم أنها كانت سابقة عليه؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن عالمية الدعوة أمر مقرر منذ بداية الدعوة في العهد المكي، والدليل على ذلك ما جاء في السور المكية من آيات تفيد أن عالمية الدعوة أمر مقرر منذ البداية، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِيتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(١)﴾. ويقول - جل شأنه - في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ^(٢)﴾. وجميعها من السور المكية.

(١) الأعراف: ١٥٨

(٢) الأنبياء: ١٠٧

غير أن الظروف لم تكن مواتية في مكة لبدء عالمية الدعوة حيث كان رسول الله ﷺ مشغولا بدعوة أهل مكة، وكذلك في السنوات الست التي تلت الهجرة كان مشغولا بتأمين المدينة والدفاع عنها ضد المهاجمين والمتآمرين والمتربصين، إلى أن وقع صلح الحديبية، واتفق على أن تضع الحرب أوزارها عشر سنوات، عندئذ بدأ التطبيق العملي لعالمية الدعوة، وانطلق الرسل يحملون كتب رسول الله ﷺ إلى حكام العالم، وقد عرضنا نصوص الكتب ومعها دراسة مستفيضة لما يؤخذ منها وأهدافها في كتابنا «وسائل الدعوة» فلا داعي لتكرارها هنا، وحسبنا أن نشير إلى الأهداف الدعوية لهذه الكتب وسواها، فقد كتب رسول الله ﷺ أكثر من مائة كتاب إلى رؤساء الجاليات والقبائل، وبعض الجماعات الأخرى في وسط الجزيرة وأطرافها ومن حولها نوجز أهدافها فيما يلي:

أولا: أنها كانت تطبيقا عمليا لعالمية الدعوة.

ثانيا: أنها كانت فرصة للرسل الذين بعث بهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء كي يشرحوا مبادئ الإسلام ويقوموا بأمر الدعوة من خلال الحوار الذي دار بين هؤلاء الرسل وبين هرقل والمقوقس والنجاشي وملكى عمان.

ثالثا: أن ملوك أهل الكتاب خارج الجزيرة كان عندهم من العلم الذي توارثوه عن أسلافهم ما عرفوا بواسطته أن هناك نبيا سيبعث، وأنهم كانوا ينتظرون خروجه.

رابعا: كانت الكتب في بعض حالاتها تقدم للرسل الخطوط العملية التي يسلكونها حينما يباشرون أمر الدعوة، كما يؤخذ من توجيهات النبي ﷺ لرسوله الذي بعث به إلى بني عبد كلال^(١).

خامسا: أنها رسمت للقبائل الطريقة الجديدة المستمدة من مبادئ الإسلام، والقائمة على احترام حقوق الآخرين والانتظام في سلك اجتماعي جديد، أساسه العقيدة، لا التعصب للقبيلة.

(١) راجع طبقات ابن سعد، ج ١ ص ٢٨٢، وكذلك وسائل الدعوة، ص ١٧٤

سادسا: أنها كانت وسيلة لإعادة بعض الخارجين على المجتمعات العربية؛ ليكونوا عناصر استقرار ومشاركة إيجابية فى الحياة على أساس من مبادئ الإسلام، بعد أن أزال الإسلام الأسباب التى دعتهم إلى الخروج، كما جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى العتقاء^(١).

سابعاً: أنها وضعت الأساس للتعامل مع الجاليات غير المسلمة التى تعيش فى داخل المجتمع المسلم^(٢).

وهكذا قامت الحياة فى المجتمعات التى آمنت بالإسلام على أسس جديدة، قوامها استقامة العقيدة وإخلاص العبادة وطهارة الأخلاق ونظافة السلوك، واحترام الحقوق، والاعتزاز بالأخوة الإسلامية، وعدم التعصب للقبيلة الذى كان يحكم حياتهم قبل الإسلام، سواء كانوا على حق أو على باطل، فإن ذلك كان لا يعينهم - آنذاك - وإنما يعينهم الانتصار للقبيلة كما قال قائلهم:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يند بهم فى النائبات على ما قال برهانا

هذا الاتجاه الجائر قد توارى، وحل محله منطق يمثل قول القائل:

أبى الإسلام لا أب لى سواء إذا افتخروا بىكر أو تميم

وفى هذه المرحلة نرى أن الدعوة استعملت وسيلة جديدة لم تكن قد استعملت من قبل هى الرسائل والرسائل الذين يتولون شرح مبادئ الدين وحوار المدعوين.



(١) راجع طبقات ابن سعد، طبع بيروت، ج ١ ص ٢٧٨. رسائل الدعوة، ص ١٦٧.

(٢) راجع طبقات ابن سعد، طبع بيروت، ج ١ ص ٢٨٧، ٢٨٨.

إكمال الدين وإتمام النعمة

شهد العام الثامن للهجرة حدثا هاما كان بعيد الأثر فى حياة الدعوة، ذلك هو فتح مكة الذى كان إيذانا بانتهاء الوثنية فى جزيرة العرب، والقضاء عليها، فما كادت مكة تدخل فى حوزة الإسلام، ويكسر رسول الله ﷺ الأصنام المنصوبة فى جوف الكعبة، وينطلق صوت بلال بالأذان من فوق الكعبة حتى سارعت القبائل تعلن ولاءها، وتقدم وفودها إلى المدينة تباع رسول الله ﷺ حتى عرف العام التاسع بعام الوفود، وهكذا ساد الإسلام أرجاء الجزيرة، وبدأت القبائل تنظم حياتها على ضوء تعاليم الإسلام، بما تتلقاه من توجيهات النبى ﷺ وتعليمه لها، وانطلق ولاته ﷺ إلى مواطن القبائل يقومون بأمور الحكم والقضاء والدعوة.

وجاء العام العاشر وقد أعلن النبى ﷺ أنه متوجه إلى الحج، وما كاد شهر ذى القعدة يهل حتى توافد إلى المدينة آلاف أصحاب النبى ﷺ فى رحلته إلى البيت الحرام؛ ليعلم الناس مناسك الحج، ويبلغ الشاهد الغائب.

وبدأ الركب منذ اللحظة الأولى التى تحرك فيها يعلن الهدف الأسمى من مقصده بالجهر بالتلبية، وانطلق أكثر من مائة ألف خلف رسول الله ﷺ يعلنون انتماءهم للإسلام وتوجههم إلى الله، ويطبقون عمليا المساواة بين البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ويؤكدون أخوة الإسلام التى يستظلون جميعا بظلها، وخطب رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - خطبة الوداع التى لخص فيها مبادئ الإسلام.

خطبة الوداع:

«الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير».

أما بعد، أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم؛ فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود^(١)، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يشس أن يعبد في أرضكم هذه؛ ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسيء^(٢) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

(١) القود: القصاص - يعنى أن يقتل من قتل غيره متعمداً إلا أن يغفر رلى المقتول.

(٢) النسيء: التأخير، وذلك أن العرب كانت تؤخر الأشهر الحرم عن مواعيدها إذا أرادوا حرباً أو كانوا في حرب.

أيها الناس: إن لتسائلكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن^(١)، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ انتهز فرصة هذا الجمع الحاشد من المسلمين الذي قدر له أن يجتمع بهذه الضخامة لأول مرة ليؤكد قضايا أساسية تقوم عليها أمور الناس في معاشهم ومعادهم بعد أن ألمح إلى أن هذا اللقاء لن يتكرر.

والأمور التي أكد عليها رسول الله ﷺ هي:

(١) أصل العضل: هو الحبس والتضييق.

- ١ - حرمة الدماء والأموال والأعراض، وحرمة البلد الحرام، والشهر الحرام.
- ٢ - الدعوة إلى أداء الأمانات إلى أصحابها.
- ٣ - إهدار ربا الجاهلية ودماء الجاهلية ومآثرها ماعدا سدانة البيت وسقاية الحاج.
- ٤ - تأصيل القصاص في القتل العمد والدية في شبه العمد.
- ٥ - القضاء على الوثنية.
- ٦ - التنديد بالنسب، وإعلان أن الزمان قد عاد إلى هيئته يوم خلق الله السموات والأرض، واستقرار الشهور اثني عشر شهرا وتحديد الأشهر الحرم.
- ٧ - حقوق النساء وحسن معاملتهن والوصية بهن.
- ٨ - الأخوة الإسلامية وحرمة الأموال.
- ٩ - التحذير من الخلاف والدعوة إلى التمسك بكتاب الله.
- ١٠ - المساواة بين بنى البشر لا فرق بين عربى وعجمى.
- ١١ - الالتزام بأنصبا الورثة حسبما قررها القرآن الكريم.
- ١٢ - الحرص على سلامة الأنساب.

وفى يوم عرفة من العام العاشر للهجرة نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) وكان هذا إيذانا بإكمال الدين وإتمام النعمة وبلوغ الرسالة غايتها، ولهذا فهم كبار الصحابة من هذه الآية قرب رحيل النبي ﷺ إلى ربه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

بعد أن عرضنا بإيجاز بعض مراحل الدعوة الخاتمة نرى أن نقف وقفة أخيرة نتعرف من خلالها نظرة الإسلام العامة حينما يعالج قضية من القضايا. ونشير إلى بعض خصائص الرسالة الخاتمة، وما تميزت به من عدل، ومساواة، وأخوة، وتكافل، وتشاور فيما يعن للناس فى حياتهم من قضايا وأحداث.

(١) سورة المائدة، من الآية: ٣.

منهج الإسلام فى علاج القضايا العامة

يتميز الإسلام بنظرة شمولية تستوعب كل الجوانب حينما يعالج قضية من القضايا، أو يتناول أمرا من الأمور، هذه النظرة الشمولية تأخذ فى اعتبارها الجانب الإنسانى والاجتماعى، حينما تعالج موضوعا اقتصاديا مثلا إيماننا بالآثر الفعال لأحد هذه الجوانب بعضها فى الآخر؛ لأنها تؤثر سلبا أو إيجابا فى النشاط الإنسانى، فردا أو جماعة، لهذا كانت النظرة المتوازنة الشاملة ضرورية ليتحقق للبشر أفرادا أو جماعات الاستقرار النفسى، والأمن الاجتماعى، والثقة فى المستقبل، والاطمئنان إلى الحاضر، مما يترك أثره الواضح على السلوك والأخلاق والإنتاج على السواء.

ومن أجل ذلك تواترت النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية تدعو كل مسلم فى موقعه حاكما أو محكوما، فردا أو جماعة، عاملا أو صاحب عمل أن يتحلى بالعدل فى حكمه والإخلاص فى عمله، والاستقامة فى سلوكه، والإحساس الكامل بأنه عضو فى أسرة واحدة، يناله نصيبه مما تجنيه من خير، أو تواجه به من شر، كما يوضح ذلك قول النبى ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمل والسهر»^(١).

وهذا يعنى أن مسئولية كل من أفراد المجتمع كاملة عن كل ما يقع من حوله من أحداث، ويعنى أن كل ما يراه من حوله يدعو أن يتخذ منه موقفا محددا، ولا يكفى أن يكون بمنأى عن الخطأ بل عليه أن يتقدم بمنع الخطأ من الوقوع؛

(١) رواه مسلم، وأحمد فى مسنده، راجع شرح النووى لمسلم ج ١٦ ص ١٤٠ والكنز الثمين ص ٥٣٣.

حتى يحمى الآخرين من آثاره الضارة، كما يصور ذلك بأساليب متعددة رسول الله ﷺ في قوله: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَسْتَقُوا مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا حَتَّى لَا نُؤْذِيَ مَنْ فَوْقَنَا، فَلَوْ تَرَكُوهُمْ لَهَلَكُوا وَهَلَكُوا جَمِيعًا، وَلَوْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ لَنَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا، فَذَلِكَ مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا» (١).

وكذلك قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالزَّوْجَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْعَبْدُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» (٢).

وهذا يعنى أن الأمر في نظر الإسلام دائر على تحقيق مصالح الناس، وجلب الخير لهم، سواء في ذلك عقائد الإسلام وشرائعه، فالله - سبحانه - يريد أن يوفر السعادة والاطمئنان للناس على هذه الأرض، فالله يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ

وَحِينَمَا نَتَأَمَّلُ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ نَجِدُ هَذَا الْهَدَفَ جَلِيًّا مِنْ تَشْرِيعِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ، فَحِينَمَا نَهَى اللَّهُ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ عَقِبَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٣).

وحينما ينهى رسول الله ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها يعلل ذلك بقوله: «إِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ» (٤).

(١) أخرجه البخاري والترمذي، راجع الكتر الثمين ص ٥٣٣.

(٢) راجع مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣٢٧ تحقيق محمد ناصر الألباني. وراجع الكتر الثمين ص ٤٠٢.

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) المائدة: ٩١.

(٥) راجع فقه السنة، المجلد الثاني، ص ٣٤٧.

من خصائص الإسلام

أ - العدل: أرسى الإسلام قواعد العدل بين البشر، سواء كانوا أنصارا أو مناهضين، فالعدل لا بد أن يعيش في ظله الجميع، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (١). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (٢). ذلك العدل المطلق الذي جعله رسول الله ﷺ علامة على كمال الإيمان، حينما دعا إلى العدل في الرضا والغضب، والحب والبغض (٣).

ب - المساواة: وحقق الإسلام المساواة بين بنى الإنسان بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم، فالمرء بأصغريه: قلبه ولسانه. والناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى؛ ذلك أن الله لا يقوِّم الناس حسب صورهم وأجسامهم؛ ولكن حسب ما تنطوي عليه قلوبهم من نوازع الخير، وما يقدمون من أعمال تنفع البلاد والعباد.

فالناس جميعا أبناء لأب واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب، فمجال التفاضل بينهم لا يرجع إلى انتمائهم لجنس من الأجناس، أو لشعب من الشعوب، أو لارتباطهم بمنطقة من المناطق أو بلد من البلدان، ولكن بمقدار ما انطوت عليه

(١) المائدة: ٨

(٢) النساء: ٥٨

(٣) خرج الحديث أبو داود، ونصه: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» راجع الكثر الثمين ص ٥٤٣.

قلوبهم من معانى الخير، وما قدموه للإنسانية من مثل عليا: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

هذه المساواة التى أرسى الله قواعدھا، وشرع للناس حدودھا بما يتفق مع الطبيعة البشرية ويلائمھا، ولذلك آتت أكلھا، وسعد الناس فى ظلھا، وتحقق لكل فرد ما يصبو إليه من الخير والأمن والاستقرار.

أما دعوى المساواة التى تتجاهل الطبائع البشرية، والتى اتخذتها بعض النظم شعارا لها كالماركسية، فقد أدت إلى نتائج عكسية؛ لأنها أهدرت قيمة الإنسان، وعاملته كآلة خالية من العواطف والتطلعات التى تقتضيها طبيعته التى خلقه الله علیھا.

وإن شئنا دليلا على ذلك فلنقرأ معا تلك الصيحات التى انطلقت من صفوف النساء الروسيات، بعد أن عشن فى ظل هذه الأوضاع المناقضة للطبيعة البشرية أكثر من ستين عاما، فانطلقت صيحاتهن تعبر عن ريف هذه الدعوة التى عشن فى ظلالها أكثر من نصف قرن، لم يحصلن من ورائها إلا على القهر وانحراف الطبيعة الإنسانية نتيجة للضغط الذى عشن تحت وطأتها، والواقع أن هذه الصيحة واحدة من صور التعبير المختلفة التى انبعثت من أرجاء العالم الذى وقع تحت وطأة الحكم الماركسى خلال العقود الستة الماضية، والتى تمثلت فى انتفاضات الشعوب التى أوقعها سوء الحظ تحت سيطرة هذا النظام الجائر المتسلط، وليس غائبا عن أذهان العالم ما وقع فى المجر وتشيكوسلوفاكيا فى السنوات الماضية، وما كانت تغلى به بولندا، وما انتهى الأمر بعد ذلك إلا إلى انهيار هذه الخرافة التى كانت تسمى الاتحاد السوفيتى، وتخلص دول أوروبا الشرقية من ذلك الكابوس الذى جثم على صدرها عشرات السنين، مما يعد أصدق دليل على ريف الدعاوى العريضة التى ظل الماركسيون يدغدغون بها أحلام الفقراء والطبقات العاملة.

(١) الحجرات: ١٣

أما ما نريد أن نسجله هنا كمثال من واقع حياة المجتمعات التي ابتليت بالماركسية كدليل على فشل هذا النظام في تحقيق المساواة؛ لأنه قام على إهدار قيمة الإنسان، ويجعل غيرنا يسلم معنا بأن النظام الأمثل لتحقيق المساواة بين البشر على اختلاف طبقاتهم وبلادهم وشعوبهم وأجناسهم هو النظام الذي جاء به الإسلام، ولا شيء سواه؛ ذلك لأنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه.

أما الدليل الذي نسوقه، فهو صيحات عدد من النسوة الروسيات يعبرن فيها عن المعاناة والضياع والحيرة التي عشن فيها نتيجة النظام الذي فرضته عليهن الماركسية، والذي أفقدهن قيمتهن الإنسانية.

وقد نشرت جريدة الأهرام في الثامن من ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ الموافق الثالث من يناير سنة ١٩٨٢م تقريراً نقلته عن مجلة الأبرزفر البريطانية تحت عنوان (تدهور أوضاع المرأة في ظل المساواة الشكلية) وهو بحث عن حالة المرأة الروسية، مأخوذ من كتابات الروسيات أنفسهن، ويقول البحث: ظهرت ضمن جماعات المنشقين في الاتحاد السوفيتي مؤخراً حركة نسائية منشقة بدأت في مدينة ليننجراد، وراحت تنتشر في مختلف أنحاء الاتحاد السوفيتي، ودول الكتلة الشيوعية.

لقد كانت منشورات ومطبوعات المنشقين السوفيت التي تصل إلى دول الغرب حتى السنوات الأخيرة لا تشير إلى حقوق المرأة في حد ذاتها، وتركزت فقط على حقوق الإنسان بصفة عامة، وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة كتاب العالم السوفيتي الشهير أندريه رخاروف «الخطر والأمل» الذي لفت الأنظار إلى الآثار الخطيرة التي ينتجها النظام السوفيتي الجائر على الصحة البدنية والعقلية للنساء، وتدهور معدل المواليد في الاتحاد السوفيتي بسبب هذه الآثار.

وفي ديسمبر ١٩٧٩م وهو يوم الاحتفال بالذكرى إعلان حقوق الإنسان ظهرت أول نشرة متخصصة في شئون المرأة تحت عنوان «تاريخ المرأة الروسية» قامت

بتحريرها النساء المنشقات، وتضمنت مقالات، وأبحاثا، وأشعارا، وقضايا تاريخية حول مشاكل المرأة على وجه التخصيص، وكشفت النقاب عن الفارق بين صورة المرأة فى الأيديولوجية الشيوعية وبين الواقع المرير الذى تحياه النساء فى داخل الاتحاد السوفيتى.

وفى هذه النشرة: ذكرت النساء قصص الإجهاض فى مستشفيات الإجهاض التى أطلقوا عليها وصف «مقارم اللحم» كما ذكروا أيضا حكايات عن اغتصاب الأرواح المخمورين لزوجاتهم، ومعسكرات الاعتقال الصغيرة التى يعيش فيها الأطفال تحت اسم «معسكرات الطلائع» والسجن بتهمة «البطالة» و«الطفيلية» الذى توضع فيه النساء، وغير ذلك من الروايات.

وقد كان لهذه النشرة تأثير مُدَوٍّ ليس فقط داخل روسيا، وإنما أيضا فى الخارج، وبخاصة فى أوساط الحركة النسائية فى باريس، حيث ظهرت لها فوراً نسخة مترجمة إلى الفرنسية، واهتمت الصحف النسائية وغير النسائية فى فرنسا بكاتبات هذه النشرة وأجرت معهن الأحاديث الصحفية المتعددة حول أوضاع النساء فى الاتحاد السوفيتى.

ورغم التشابه بين بعض مشاكل المرأة الروسية وبين كل النساء فى الدول الغربية، فإن معظم المشاكل التى ذكرتها النشرة كانت مشاكل روسية بحتة، وكان واضحاً أن النساء السوفيت معجبات بالمدى الذى وصلت إليه حركة المرأة الغربية، ولكنهن لا يشاطرنها نفس الآمال التى رعنمن أنها تحققت بفضل الثورة الروسية، حيث أصبحت المرأة الآن فى الاتحاد السوفيتى رائدة قضاء، وعاملة فى المصانع، بل على العكس، فإن معظم مطالب المرأة الروسية كانت تسير فى خط معاكس، فال مساواة التى وعدتهن بها الثورة الروسية قد دمرت الحياة النسائية السابقة دون أن يؤدى ذلك إلى إسعاد المرأة الروسية بأى حال من الأحوال.

وكما ذكرت الصحفية المنشقة «كيراسابكيرو» لقد كف الرجل عن أن يكون محامى المرأة، ولكنه يتحول بعد إلى شريك يشاطرها كل شىء، وقد حذرت هذه

الصحفية فى مقالها نساء الغرب من التطرف فى دعوة المساواة التى تدمر قيم الأسرة والأمومة، وتطيح بدور المرأة كمصدر للحب والاستقرار، والحركة لا ترفض مبدأ المساواة، ولكنها ترفض المساواة الشكلية التى تساوى المرأة بالرجل حتى فى الأعمال التى يسعى العلم إلى تخليص الرجال منها.

أما «تاتياجورنشيفا» وهى فيلسوفة ذات تعليم ماركسى، فقد أيدت فى مقالها كل ما ذكرته زميلتها الصحفية «كيرأسابكير» وأضافت تقول: إن نظام التعليم السوفيتى قائم على أساس مساواة مثالية زائفة بين الرجل والمرأة تنطوى فى حقيقتها على احتقار للأنوثة، وإن هذا النظام لم يؤد إلى تحرير المرأة، وإنما إلى تأنيث الرجال، بعد أن فقدوا حريتهم وقدرتهم على تحمل المسئولية.

وقالت «تاتيا» فى مقالها: إن المرأة سواء فى الأسرة التى تحللت بسبب إدمان الرجال للخمر، وأيضاً فى المصانع، تشكل قوة العمل الرئيسية، وإن العمل فى البيت والمصنع يثقل كاهلها، ويدمر معنوياتها، وذكرت أن المرأة والرجل على السواء قد تحولوا فى المجتمع السوفيتى إلى جنس ثالث، هو جنس سوفيتى محض، لا مثيل له فى أى مجتمع آخر.

لقد أطلت فى هذا الاقتباس لأننى أحببت أن يعرف الكثيرون ممن يغترون بالدعاوى العريضة - أحببت - أن يروا الحقيقة ماثلة أمام أعينهم على السنة نساء من قلب الاتحاد السوفيتى المنحل، نشأت وتربى فى ظل الثقافة الروسية، والتوجيه الروسى، إلا أن ذلك على الرغم من الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيل السيطرة على العقول والتصرفات لم يستطع أن يحجب الحقيقة المرة التى انبعثت من صيحات هؤلاء النسوة بعد أن جاور الأمر حد الاحتمال، لعله يكون فيه عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ج - أقام الإسلام العلاقة بين أفراد المجتمع على أساس الأخوة التى تدعو إلى التناصر والتعاون على تحقيق الخير العام لمن يعيش فى ظلال هذا المجتمع الذى

أقامه الإسلام، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١). وقول النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلَمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٢).

د- جعل الإسلام التكافل بين أفراد المجتمع المسلم قاعدة التعامل بينهم اخلا من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٣). وقول النبي ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَاجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»^(٤). ومن أجل هذا التكافل ضرب المسلمون الأول المثل الفضة في الإيثار حتى استحقوا ثناء الله عليهم في كتابه حين قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٥). وحث النبي ﷺ على أن يكون التكافل سمة المجتمع المسلم، وذلك بدعوة القوى إلى معاونة الضعيف، وحث الغنى على مد يد المساعدة إلى الفقير في حديثه الجامع الذي يقول فيه: «مَنْ نَقَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٦).

هـ- وأقام نظام الحكم على الشورى التي تعطي صاحب الرأي الفرصة كي يعبر عن رأيه فيما يعرض من قضايا عملا بقول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٧)

(١) الحجرات: ١٠

(٢) جاء الحديث بصيغ متقاربة في مسلم وأبي داود ومسنده أحمد. راجع الكثر الثمين، ص ٦٠٦، ٦٠٧.

(٣) المائدة: ٢

(٤) راجع «الأدب المفرد» للإمام البخاري، ج ٢ ص ٤٨١

(٥) الحشر: ٩

(٦) راجع مختصر صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٨

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١﴾ . وإثنى القرآن الكريم على النبي ﷺ بصفات أخذ نفسه بها، ودعاه إلى مشاورة المؤمنين ليكون ذلك تعليما لنا في منهج حياتنا، فقال: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَكُمْ لَتَكُنَّ فِئَةً مَذْمُومَةً لَعَنَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وقد طبق رسول الله ﷺ الشورى في حياته مرات عديدة، وطلب صراحة من أصحابه أن يمدوه بمشورتهم كلما حزب أمر أو نزلت بالمسلمين نارلة تحتاج إلى تداول الرأي، واستعراض وجهات النظر، كان ذلك فى غزوة بدر حين قال قبل أن يقرر خوض المعركة: «أشيروا علىّ أيها الناس» وكررها مرات، وكان ذلك أيضا قبل غزوة أحد، وفى غزوة الخندق، كان رسول الله قد أجرى مفاوضة مع غطفان، وقبل أن يمضى الاتفاق شاور سعد بن معاذ وسعد بن عباد فسالاه: هل هذا وحى من الله فليس لنا أن نبدى فيه رأيا؟ فقال: «إنما فعلت ذلك لأجلكم» فأجابا: إننا لما كنا فى الجاهلية لم يطمعوا فى أن ينالوا شيئا قط من ثمار المدينة، فكيف وقد أكرمنا الله بالإسلام؟ ونزل رسول الله على رأيهما (٣).

وترتب على مراعاة هذه الأسس أن أخذ الإسلام فى اعتباره العمل بها كلما عالج قضية من قضايا الحكم والإدارة، أو وسيلة من وسائل المال واستثماره، أو موقفا من مواقف القضاء والفصل بين الناس، حتى يتحقق للناس ما يرجون من سعادة وطمأنينة فى هذه الحياة، ووضع العلماء هذه القاعدة التى تجمع الأصول العامة لحقوق الناس من إقرار «حرمة الدم والعرض والمال والعقل والدين».

وقد أرسى الإسلام القواعد العامة لهذه المبادئ، وترك وسيلة تطبيقها لأهل كل جيل بالطرق التى تناسبهم، وتحقق لهم ما يريدون، مما يجعل الإسلام يتسم

(١) سورة الشورى، الآيةان: ٣٨، ٣٩.

(٢) الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٣) يراجع فى ذلك تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤ والبدية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٢.

بنظرة مرنة تعين على استيعاب كل ما يجد من أحداث، وما يستحدث من نظم ومن أجل ذلك كان للإسلام منهجه الخاص والتميز في كل جانب من الجوانب التي تحتاجها حياة الناس، سواء في مجال الحكم والإدارة، أو في مجال القضاء وإقامة العدل، أو في مجال المال والاستثمار بما يحقق الكفاية والعدل للناس جميعا.

وقد تكفلت كتب الفقه السياسى وفقه المعاملات والنظام المالى فى الإسلام بيسط القول فى هذه المجالات، فليرجع إليها من يريد المزيد، من أمثال كتب «الأحكام السلطانية» للماوردى وابن أبى يعلى، وكتب (الخراج) لأبى يوسف وسواه، وكتب (الأموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام وسواه، و(منهاج السنة) لابن تيمية، إلى جانب ما كتبه المعاصرون حول النظم السياسية والمالية فى الإسلام ومنها: (النظريات السياسية الإسلامية) للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس، و(الخلافة والإسلام فى العصر الحديث) للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس أيضا، و(نظام الحكم فى الإسلام) للدكتور محمد يوسف موسى، و(الدولة فى الإسلام) للأستاذ خالد محمد خالد، و(الدين والدولة) للدكتور محمد البهى، و(الإسلام عقيدة وشرعية) للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، و(الإسلام والشيوعية) للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، و(الإسلام والشيوعية) للدكتور عبد المنعم النمر، و(نظام الحكم فى الإسلام) للدكتور محمد إبراهيم الجيوشى.



الدعاة من الصحابة رضوا الله عليهم

١. أبو بكر

٢. عمر

٣. عثمان

٤. علي

٥. مصعب بن عمير

الصديق أبو بكر

اسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، والمتداول بين الناس أن اسمه أبو بكر بن أبي قحافة، ولقب بعتيق، والصديق، وقد أوردت الكتب أسبابا كثيرة لتلقيبه بعتيق وبالصديق.

وسبب تسميته عتيقا لعناقة وجهه وجماله، وقيل: إن أمه كانت لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت، وقالت: اللهم إن هذا عتيقك من الموت، فهبه لي، فعاش، فسمته عتيقا.

وروى أن سبب تسميته عتيقا قول النبي ﷺ: «أنت عتيق الله من النار» أو قوله: «من سره أن ينظر إلى عتيق من الناس فلينظر إلى هذا».

وأما تسميته الصديق فقد أوردت الكتب أيضا أكثر من سبب لتسميته بالصديق، خلاصتها: أنه كان في الجاهلية وجيها رئيسا يتحمل الديات، فكان إذا تحمل شيئا من ذلك صدقته قريش وحملوا معه ما تحمله، ثقة فيه.

وروى أن سبب هذه التسمية تصديقه للنبي ﷺ عقب حادث الإسراء، حينما جاءه كفار قريش وقالوا له: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس.

قال: وقد قال ذلك؟

قالوا: نعم

قال: لئن قال ذلك لقد صدق.

قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟
فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، في خبر السماء في غدوة وروحة، فلذلك سمي الصديق^(١).

أحداث مهدت لإسلامه:

روت الكتب أن أبا بكر كان في تجارة إلى الشام، فرأى رؤيا، فذهب إلى بحيرا الراهب طالبا منه أن يعبرها له.

فسأله بحيرا: من أين أنت؟

أجاب أبو بكر: من مكة.

فسأله: من أيها؟

أجاب: من قريش.

قال: فأى شيء أنت؟

قال: تاجر.

قال: إن صدق الله رؤياك فإنه يبعث نبي من قومك تكون وزيره في حياته وخليفته من بعد وفاته، فاحتفظ أبو بكر بذلك سرا في نفسه حتى بعث النبي ﷺ فذهب إليه، وقال: يا محمد: ما الدليل على ما تدعى؟

قال: الرؤيا التي رأيت بالشام.

فعانقه، وقبل بين عينيه، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

كذلك من مقدمات إسلامه ما روى عن أم سلمة قالت: كان أبو بكر خدنا للنبي ﷺ وصفيًا له، فلما بعث ﷺ انطلق رجال من قريش إلى أبي بكر، فقالوا: يا أبا بكر: إن صاحبك هذا قد جن.

(١) راجع الرياض النضرة، ج ١ ص ٧٨، ٧٩

قال أبو بكر: وما شأنه؟

قالوا: هو ذاك يدعو في المسجد إلى توحيد إله واحد، ويزعم أنه نبي.

قال أبو بكر: وقال ذاك؟

قالوا: نعم هو ذاك في المسجد يقول.

فقصد أبو بكر إلى بيت النبي ﷺ فطرق عليه الباب، فخرج له، فلما التقيا قال له أبو بكر: يا أبا القاسم: ما الذي بلغني عنك؟

قال: وما بلغك عني يا أبا بكر؟

قال: بلغني أنك تدعو لتوحيد الله، وزعمت أنك رسول الله.

فقال النبي ﷺ: «نعم يا أبا بكر إن ربي - عز وجل - جعلني بشيرا ونذيرا وجعلني دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعا»

قال له أبو بكر: والله ماجرت عليك كذبا، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مد يدك فأنا أبايعك. فمد رسول الله ﷺ يده فبايعه أبو بكر وصدقته، وأقر أن ما جاء به الحق^(١).

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ مِنْهُ كِبَوةٌ وَنَظَرٌ وَتَرَدُّدٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ مَا عَكَمَ عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ».

ومما يتصل بما سبق ما روى عن ابن عباس: أن أبا بكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة، وهم يريدون الشام في تجارة حتى نزلوا منزلا فيه سدره، فنزل رسول الله ﷺ في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن الدين.

فقال: من الرجل الذي في ظل السدره؟

(١) راجع الرياض النضرة، ج ١ ص ٨٣، ٨٤.

فقال: ذاك محمد بن عبد الله.

قال: والله هذا نبي الله، ما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد ﷺ فوقع في قلب أبي بكر اليقين^(١).

هذه الأحداث التي مرت إلى جانب صحبة أبي بكر لرسول الله ﷺ منذ الشباب الباكر جعلته يكون في مقدمة الذين آمنوا بالإسلام وصدقوا برسائله.

دعوته إلى الإسلام:

وما كاد أبو بكر يسلم حتى بدأ نشاطه في سبيل الدعوة إلى الدين الجديد، وجذب الأنصار إليه، وساعد على قيامه بالدعوة إلى الإسلام مبكراً ما تميز به بين رجال قريش من ألفة ومحبة، وخلق سمع، ومعرفة بأنساب قريش، وما فيها من خير وشر، وكان لاشتغاله بالتجارة يغشى الناس مجلسه ويتفجعون بعلمه وتجاربه، ويأنسون بحسن خلقه، فكان يختار من يثق فيه ممن يترددون عليه فيدعوهم إلى الإسلام، فدخل في الإسلام على يديه عدد من السابقين إلى الإسلام، ومنهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وخالد بن سعيد بن العاص، وكان يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ ليعلموا إسلامهم بين يديه.

وكان لبعضهم مواقف وقصص دعت إلى إقبالهم على الإسلام وذهابهم إلى أبي بكر يحدثونه في أمورهم، ومن هؤلاء خالد بن سعيد بن العاص، فقد رأى أنه واقف على شفير نار عظيمة، وأن أباه يدفع به إليها، وأن رسول الله ﷺ يمسك به ويحول بينه وبين الوقوع فيها، فأهمه أمر هذه الرؤيا، وذهب إلى أبي بكر يقصها عليه لعله يجد عنده لها تفسيراً لما كان يعرف من علم أبي بكر بين رجالات قريش والثقة البالغة فيه، فقال له أبو بكر: «أريد بك خيراً؛ هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، والإسلام يحجزك أن تقع فيها، وأبوك واقع فيها» فلقى خالد رسول الله ﷺ بأجياد، فقال: يا محمد إلام تدعو؟

(١) المصدر السابق، ص ٨٧

قال: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتَخْلَعُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَذَرِي مِنْ عَبْدِهِ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدْهُ».

فلم يتردد خالد في إعلان إسلامه^(١).

وسنرى في عرضنا لجهود عثمان - رضى الله عنه - في سبيل الدعوة قصة إسلامه وحديثه إلى أبى بكر - رضى الله عنه - بشأنها.

أول خطيب يدعو إلى الإسلام،

كان أبو بكر - رضى الله عنه - أول من وقف خطيباً في مكة يدعو إلى الإسلام، وتفصيل ذلك أن أبا بكر - رضى الله عنه - أخذ يلح على رسول الله ﷺ في الظهور وإعلان الإسلام، وهم يجتمعون في دار الأرقم بن أبى الأرقم ورسول الله ﷺ يقول له: يا أبا بكر: إنا قليل. وكانوا أقل من أربعين رجلاً فلما أكثر أبو بكر خرج رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، وقام أبو بكر خطيباً في الناس يدعو إلى الله ورسوله، وكان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد، فثار المشركون على المسلمين وضربوهم، وضرب أبو بكر ضرباً شديداً حتى أخذ عتبة بن ربيعة يضربه على وجهه ينعلين مخصوفين حتى تورم وجهه، ولم يعرف وجهه من أنفه لما أصابه من الانتفاخ من أثر الضرب، وغشى على أبى بكر من أثر الضرب، حتى وصل الخبر إلى بنى تميم قوم أبى بكر، فجاءوا وحملوه إلى بيته وهم لا يشكون في موته حتى قالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة، وأخذوا يراقبون أبا بكر ويحاولون إفاقته حتى أفاق، وكان أول ما نطق به قوله: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقال قومه منه وعذلوه، ثم انصرفوا بعد أن اطمأنوا على حياته، وأوصوا أمه أم الخير بما تصنع معه من طعام وشراب، فلما خلا البيت به وبأمه أخذ يسألها: ما فعل رسول الله ﷺ؟

(١) راجع أسد الغابة ج ٢ ص ٩٧ وأنساب الأشراف، قسم ٢ ج ٤ ص ١٢٥ والطبقات الكبرى قسم ١ ج ٤ ص ٦٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساکر، ج ٥ ص ٤٦

فكان جوابها: والله ما أعلم بصاحبك. وأراد أبو بكر أن يطمئن على رسول الله ﷺ فطلب إلى أمه أن تذهب إلى أم جميل بنت الخطاب - وكانت من المسلمات السابقات - لتسألها قائلة: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فأكرت أم جميل معرفتها بالنبي وأبى بكر خشية أن يكون في الأمر خديعة، ثم أرادت أن تستوثق من الأمر فقالت: إن أحببت أن أمضى معك إلى ابنك فعلت، قالت: نعم، ومضت معها حتى رأت أبا بكر صريعا دنفا. فدنت أم جميل منه وصاحت قائلة: إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك. فسألها أبو بكر: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: هذه أمك تسمع، فطمأنها قائلاً: لا عين عليك منها. فقالت أم جميل: سالم صالح.

فسأل: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم. فأقسم أن لا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى يأتى رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى هدأت الرجل وسكن الناس فخرجتا به يتكىء عليهما حتى دخل على النبي ﷺ فأنكب عليه يقبله، وأنكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبى أنت وأمى، ليس بى إلا ما نال الفاسق من وجهى. هذه أمى برة بوالديها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله - عز وجل - لها عسى أن يستنقذها بك من النار. فأسلمت أمه فى تلك الليلة^(١).

تعرضه للأذى دفاعاً عن رسول الله،

قد رأينا ما أصاب أبا بكر وتعرض حياته للهلاك فى الموقف الماضى، ولم يكفه ذلك عن المسارعة إلى الدفاع عن رسول الله ﷺ إذا سمع أنه تعرض للأذى، وما يتصل بذلك أن المشركين كانوا جالسين فى مجالسهم حول الكعبة، فتذكروا أمر رسول الله ﷺ وما يقوله من عيب آلهتهم، وأخذ بعضهم يحث البعض على

(١) الرياض النضرة، ج ١ ص ٧٥، ٧٦

التعرض له حتى يكف عن عيب آلهتهم . وبينما هم يخوضون فى الحديث حول هذا الأمر إذ أقبل رسول الله ﷺ فقاموا إليه وأحاطوا به ، وأخذوا يقولون له : ألسنت الذى تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ - يقصدون عيبه آلهتهم - فقال : بلى ، فاجتمعوا عليه يحاولون النيل منه ، ووصلت الأخبار إلى أبى بكر فأقبل مسرعا ، فوجدهم مجتمعين حول رسول الله ﷺ فقال : ويلكم ﴿ أَنْتُمْ لَوْنَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّكَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (١) .

فما كان منهم إلا أن تركوا رسول الله ﷺ وانهالوا عليه يضربونه حتى نالوا منه نيلا شديدا ، حتى إن شعره كان يتساقط من شدة ما أصابه ، وقالت أسماء التى روت هذه الواقعة : فرجع إلينا ، فجعل لا يمس شيئا من غدائه إلا جاء معه ، وهو يقول : «تباركت يا ذا الجلال والإكرام» (٢) .

وقد تتابع أذى قريش لأبى بكر - رضى الله عنه - فاستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة إلى الحبشة ، فأذن له ، فخرج حتى إذا كان من مكة على مسافة يومين لقيه ابن الدغنة سيد الاحابيش فقال : إلى أين يا أبا بكر؟ قال : أخرجنى قومي ، وأذونى وضيقوا على ، فأريد أن أسبح فى الأرض فأعبد ربي .

قال : ولم ؟ فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج مثله ، والله إنك لتزين العشيرة ؛ إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وأنا لك جار ، فارجع فأعبد ربك ببلدك . فرجع ، وارتحل معه ابن الدغنة ، وطاف ابن الدغنة فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ يا معشر قريش : إني قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له أحد إلا بخير . فكفوا عنه وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ويصل فيها ، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فأخبره ابن الدغنة بذلك .

(١) سورة غافر ، من الآية : ٢٨

(٢) راجع الرياض النضرة ، ج ١ ص ٩٣

وأقام على ذلك مدة، ثم بدا له فابتنى مسجدا بفناء داره، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن.

وكان رجلا بكاء، فكان إذا قرأ القرآن لا يملك عينيه، فاردحم عليه نساء المشركين وأبناءؤهم تأثرا بما يسمعون منه، فأفزع ذلك قريشا، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرتنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره لكنه تجاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره، وأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا فأنهه، فإن أحب أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك، فلما كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان.

فذهب ابن الدغنة إلى أبى بكر، وذكره بما اتفقا عليه لما أجاره، وخيره بين أن يلتزم بما اتفقا عليه أو أن يرد عليه جواره، قائلا: قد علمت الذى قد عاقدتك عليه فلما أن تقتصر على ذلك وإما أن تردّ على ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإنى أردّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله - عز وجل -.

وعقب ذلك لقي أحد سفهاء قريش أبا بكر فحشا على رأسه التراب، وحدث أن مر به الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فلما قال له أبو بكر: ألا ترى إلى ما صنع هذا السفهية؟! فكان جوابه: أنت صنعت هذا بنفسك^(١).

ولكن ذلك كله وأكثر منه لم يفتّ فى عزم أبى بكر ولم يجعله يتراجع؛ لأن الإيمان قد عمر قلبه، وضرب المثل بصبره وتحمله الأذى وتعرضه لفعل السفهاء ضرب المثل بذلك لأصحاب العقائد أن يصبروا ويصابروا؛ فإن الله مع الصابرين، وإن الحق لا بد له أن يعلو، ولا بدّ للباطل أن ينحسر ظله ويزول سلطانه، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم مؤمنون.

واستحق أبو بكر بهذا وسواه قول النبى ﷺ فى حقه: «لو وزن إيمان هذه الأمة بإيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر».

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٦٥، ٦٦.

وقد تابع أبو بكر - رضى الله عنه - جهاده فى سبيل الدعوة والحفاظ على الضعفاء من المسلمين الذين كانوا يتعرضون للأذى والعذاب من زعماء قريش ورجالاتها، فسخر أمواله لحمايتهم وإنقاذهم مما يعانونه من العذاب.

عتق عدد من الأرقاء المسلمين:

رأى أبو بكر - رضى الله عنه - الأرقاء من المسلمين يتعرضون لاضطهاد مالكيهم، والتفنى فى تعذيبهم ليحملوهم على الكفر فأرَّقه ذلك وجعل أمواله فى خدمة هؤلاء ورفع المعاناة عنهم، فكان يساوم مالكيهم فيهم ويشتريهم ثم يعتقهم ليعبدوا الله وهم آمنون من بطش ساداتهم، وفى مقدمة هؤلاء الذين اشتراهم أبو بكر وأعتقهم: بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ الذى كان أمية بن خلف يلقيه فى رمضاء مكة تحت حر الشمس المحرقة، ويضع على صدره الصخر ويقول له: ستبقى هكذا حتى تكفر بمحمد، وكان جواب بلال دائما «أحد أحد» وحتى قال عمر بن الخطاب بعد ذلك: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا.

تسخيره أمواله فى خدمة الدعوة ومؤازرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى كل موقفه، حتى إنه أنفق كل ماله فى سبيل الدعوة، ولما سأله رسول الله ﷺ ماذا أبقيت لأهلك؟

أجاب: أبقيت لهم الله ورسوله.

مصاحبته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مواسم الحج:

كان رسول الله ﷺ يتعرض للقبائل فى مواسم الحج يعرض عليها الإسلام، ويدعوها إلى مؤازرته، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يصحبه ويقدمه ويعرف القبائل به، ومن أبرز المواقف فى ذلك موقفه من لقاء بنى شيبان والحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله بعد تقديم أبى بكر له، وقد عرضنا ذلك الموقف وتفاصيل الحوار الذى دار فيه وما يستنتج منه فى كتابنا (وسائل الدعوة) فلا داعى لإعادته، ويمكن الرجوع إليه هناك.

هذه بعض المواقف الدعوية لأبى بكر - رضى الله عنه - فى حياة النبى ﷺ

وقد اردادت هذه المواقف قوة واجتهادا بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وصار أبو بكر المسئول الأول في الدولة الإسلامية عن الدعوة واستمرارها، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده، كل في مدة خلافته؛ ذلك لأنهم كانوا يعتبرون بسيرتهم وتضحياتهم ومسلكتهم في الحفاظ على الدين والدفاع عنه، وفي أخلاقهم التي اكتسبوها من الإسلام كانوا يعتبرون بكل ذلك نماذج للدعاة، يستفيدون من الإلمام بسيرهم، والوقوف على المشاهد التي تعود بالنفع على القارئ والمستمع على السواء.

ولسنا نقصد من تناولنا لبعض مواقف الخلفاء الراشدين أن يكون تناولنا تاريخيا يستوعب حياتهم منذ الميلاد حتى الوفاة، وما يتخلل ذلك من أحداث؛ لأن هذا أمر تكفل به المؤرخون، وإنما هدفنا من تناول أن نختار بعض المواقف التي كانت ذات أثر بعيد في الدعوة ومسيرتها، وتركيزنا على الخلفاء الراشدين مرده أن النبي ﷺ دعا إلى الاقتداء بهم، والأخذ عنهم، واتباع سنتهم بقوله: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ» (١).

وقد استمرت الخلافة الراشدة ثلاثين عاما بعد وفاة رسول الله ﷺ انتهت في العام الأربعين من الهجرة، وهذا تصديق للحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ الذي يقول: «الخلافة بعدى ثلاثون عاما، ثم تكون بعد ذلك ملكا عضوضا» وهكذا تحقق ما جاء في حديث رسول الله ﷺ فتنازل الحسن بن علي لمعاوية - رضى الله عنهم - عن الخلافة بعد أن رأى المسلمين يقتل بعضهم بعضا، واشترط على معاوية أن يكون الأمر بعده شورى، يختار المسلمون من يتولى أمرهم، إلا أن معاوية لم يلتزم بهذا الشرط فعهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد، واستمر الأمر كذلك يعهد السابق للاحق على سبيل الملك وولاية العهد.

وما فعله الحسن - رضى الله عنه - يذكرنا بحديث آخر لرسول الله ﷺ قاله

(١) ابن ماجه (المقدمة) رقم ٤٢، ٤٣ ضمن حديث طويل عن العرياض بن سارية، وأبو داود في السنن برقم ٤٦٠٧ وأحمد في مسنده ١٢٦/٤.

فى حق الحسن بن على - رضى الله عنهما - يقول: «إن أبني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين» وقد تحقق ما جاء فى الحديث فى حق الحسن - رضى الله عنه - حينما تنازل عن الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين^(١).

ولعلنا نعود بعد هذا الاستطراد مع الأحداث - وهو استطراد لا بد منه؛ لأنه يكشف عن جوانب اقتضاها تحديد مدة الخلافة الراشدة، وكيف بدأ التحول إلى الملك العضوض كما سماه رسول الله ﷺ.

ولئن كنا قد وقفنا على بعض المواقف الدعوية فى حياة الخليفة الأول - رضى الله عنه - قبل توليه الخلافة، فإننا نبدأ فنتابع الحديث عن أبرز هذه المواقف بعد أن آل أمر المسلمين إليه، وقد أخذت الأحداث تتابع منذ أعلن فى الناس وفاة رسول الله ﷺ وظهرت اتجاهات عدة فى التفكير فىمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ فأبو بكر وبنو هاشم مشغولون بتجهيز رسول الله ﷺ والأنصار أخذوا يفكرون - وهم الأكثرية - فى المستقبل.

مواقف دعوية فى حياة أبى بكر بعد توليه الخلافة.

بدأت هذه المواقف ببيعة أبى بكر - رضى الله عنه - بالخلافة وخطبته التى أعلن فيها منهجه فى الحكم وسياسة أمور المسلمين، ولعلنا نتساءل: كيف كانت البيعة؟ والأحداث التى واكبتها؟ وسبب ذلك أن الرسول ﷺ لم يعين أحداً للخلافة من بعده، وهذا هو مذهب أهل السنة جميعاً، وعلى ذلك فأمر الخلافة قائم على الشورى، إلا أن الشيعة يرون غير ذلك؛ إذ يقولون إن رسول الله ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده لعلى - رضى الله عنه - وعلى أوصى لبيته، وبنوه أوصوا لبيتهم فى أمور يطول شرحها، خلاصتها أنهم يرون أن الإمامة أو الخلافة بالنص، وشرح ذلك فى دراسة نظام الحكم فى الإسلام، وقد عرضنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا: (نظام الحكم فى الإسلام) فليرجع إليه من يريد الوقوف على تفاصيل هذه القضايا.

(١) راجع مروج الذهب للمسعودى، ج ٣ ص ٨

حينما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى كان ذلك مفاجأة غير متوقعة للمسلمين؛ لأنهم قد نسوا في غمرة حبهم لرسول الله ﷺ أنه بشر يعجرى عليه ما يعجرى على البشر، وأن الله - سبحانه - قد ذكر ذلك في كتابه الكريم حين قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (١).

ولكن ما كاد خبر موت رسول الله ﷺ ينتشر حتى اختلفت ردود الفعل عند أصحابه ومنهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على جلالته ومكانته فى الإسلام، فإنه حين سمع نبأ وفاة رسول الله ﷺ ظن أن ذاك شائعة أطلقها المنافقون وقال: إن محمدا لم يميت، وإنما ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى من قبل، فمن قال: إن محمدا قد مات قتله بسيفى هذا.

وكان أبو بكر خارج المدينة حينذاك، فلما جاء دخل على رسول الله ﷺ وهو مُسَجَّى فى برده فكشف عن وجهه وقبله، وقال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا يا رسول الله!! ثم خرج إلى الناس، فقال: أيها الناس: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقِلْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢).

عندئذ قال عمر: كأننا لم نسمع بهذه الآية من قبل. ورأى ما كان به من غضب وثورة.

وبذلك وضع أبو بكر الأمور فى نصابها، وذكر الناس بأن كل حي له نهاية ينتهى إليها نبيا كان أو رسولا، ولا شك أن هذا الموقف من أبى بكر قد صحح بعض الأفكار التى ربما جالت بخواطر بعض الناس بالنسبة لحياة النبى ﷺ وموته، وكذلك ذكرت الناس، وأزالت الدهول عن المذهولين من وقع الخبر كما كان بالنسبة لعمر.

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

وأخذ أبو بكر يشترك مع بنى هاشم فى تجهيز النبى ﷺ استعدادا لدفن جثمانه الطاهر، وعلى الجانب الآخر حينما أصبحت وفاة رسول الله ﷺ أمرا واقعا اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة واستدعوا سعد بن عباد - وكان مريضا - باعتباره رعيم الخزرج، وأخذوا يتداولون القول فيمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

وهذا يعنى أنه لم يكن هناك نص^١ عن رسول الله ﷺ على من يلى الأمر بعده لأنه لو كان هناك نص لما سمح الأنصار لأنفسهم أن يتجاهلوا ذلك النص وهم الذين مدحهم الله - سبحانه - بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

والأنصار باجتماعهم هذا كانوا يرون أنهم أولى بتولى هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم الذين ناصروه وآووه وضحوا فى سبيل دينه واستشهد منهم من استشهد وجرح منهم من جرح، وقدموا للإسلام ما لم يقدمه أحد سواهم وأوشكت المداولات بينهم أن تصل إلى اختيار سعد بن عباد - رعيم الخزرج - ليتولى أمر المسلمين.

وسرى خبر السقيفة حتى وصل إلى عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح - رضى الله عنهما - فتوجه عمر إلى بيت رسول الله ﷺ وأرسل إلى أبى بكر من يستدعيه قائلا: إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج أبو بكر إليهما، فأخبراه بخبر السقيفة فتوجه ثلاثتهم إلى هناك، وتقدم أبو بكر - رضى الله عنه - فتحدث حديثا عرف فيه للأنصار فضلهم ومكانتهم وجهادهم فى نصرة الإسلام والتضحية فى سبيله والذود عنه، إلا أنه قال بعد ذلك: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش - فى كلام طويل يمكن الاطلاع عليه فى مراجعه - وختم حديثه بقوله: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نقطع أمرا دونكم.

(١) الحشر، الآية: ٩

عندئذ قال قائل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فكان الجواب: هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد واحد، ثم عرض عليهم أن يبايعوا أحد الرجلين: أبا عبيدة، أو عمر بن الخطاب، إلا أن عمر تقدم إلى أبي بكر، فقال: أبسط يدك تباعك. وتتابع المجتمعون فبايعوا واحدا بعد الآخر، إلا أن ذلك بالطبع لم يرض سعد بن عباد فلم يبايع آنذاك، ويعد أن دفن رسول الله ﷺ صعد أبو بكر - رضى الله عنه - المنبر فبايعه الناس بيعة عامة في المسجد، ثم خطب فقال: «أيها الناس: إني وليت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم».

بهذا الموقف أنقذ أبو بكر المسلمين من فتنة كادت تعصف بهم وتفرق كلمتهم وهكذا بدأ أبو بكر مسيرته في الحفاظ على وحدة المسلمين، والانطلاق بهم نحو تحقيق ما أمر الله به، وأمر به رسوله ﷺ.

وفي الموقفين السابقين عقب وفاة رسول الله ﷺ وضح جهد أبي بكر الدعوى حيث أعاد إلى النفوس رشدًا بعد أن أذهلها موت رسول الله ﷺ، ووقى المسلمين شر الفرقة ببيعته وإعلانه عن منهجه في الحكم القائم على اتباع أمر الله ورسوله.

أما الموقف الثالث فتمثل في مواجهة المرتدين ومانعي الزكاة، خلاصة ذلك أنه قد ظهرت حركة ردة بين بعض القبائل أواخر حياة رسول الله ﷺ لما ادعى مسيلمة الكذاب أنه نبي يوحى إليه، ورادت هذه الحركة اتساعا بعد وفاة رسول الله ﷺ فظهر الأسود العنسي مدعيا النبوة في اليمن، وادعت سجاح أنها نبيه وتم لقاء بينهما وبين مسيلمة فيه كثير من المخرجات والمضحكات التي تمت بينهما لما التقيا في خيمة مسيلمة. ومن أراد أن يعرف تفاصيلها فليرجع إلى كتب التاريخ، وبخاصة (تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبري، لأن القلم يعف عن تسجيلها

فى هذا المقام . وتبع ذلك ظهور حركة مانعى الزكاة ، هؤلاء الذين كانوا يظنون أن الزكاة تدفع لرسول الله ﷺ فقط ، ومادام قد لحق بربه فليس - فى زعمهم - من حق أبى بكر أن يتقاضاها ، وهم فيما زعموا مخطئون ؛ لأن الزكاة ليست حقاً لرسول الله ﷺ ولا لأبى بكر - رضى الله عنه - وإنما هى أحد أركان الإسلام الخمسة المعلومة من الدين بالضرورة ، من ينكرها فقد كفر ، ولما واجه أبو بكر هذه الحركة بشقيها استعد لملاقاتها بحزم ، وأعد الجيوش لمحاربة المرتدين ومانعى الزكاة .

إلا أنه بالنسبة لمانعى الزكاة كان قد جرى حوار بين أبى بكر وعمر حول شرعية محاربتهم ، وكان من رأى عمر أن هؤلاء قد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فكيف نحاربهم . وقد قال رسول الله ﷺ ما معناه : «من شهد أن لا إله إلا الله عصم منى ماله ودماءه إلا بحقها» فكان جواب أبى بكر - رضى الله عنه - : «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عقاب بغير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، فإن «لا إله إلا الله» لها حقوق ، ومن حقها أداء الزكاة ، وفى هذا إشارة إلى ما قاله رسول الله ﷺ : «إلا بحقها» . وانتهى الحوار باقتناع عمر برأى أبى بكر .

وكان لموقف أبى بكر هذا أثره البالغ فى حماية وحدة الأمة وانطلاق الدعوة فى طريقها كما أمر الله ورسوله ، وإخافة كل من تسول له نفسه أن يخرج عن نظام الإسلام وحكمه ، وبذلك وضعت الأمور فى نصابها ، وعاد المانعون إلى أداء الزكاة كما كان الأمر من قبل ، وأدركوا أن هذه فريضة إلهية تشكل ركناً من أركان الدين وأساساً من أسسه ، كما قال النبى ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»^(١) وليست إتاوة لرسول الله ولا لأبى بكر .

(١) حديث متفق عليه

وكذلك أدى موقف أبى بكر الحارم إلى القضاء على حركتى المرتدين ومانعى الزكاة اللتين هددتا الإسلام وأنذرنا بخطر عظيم دفع الله شره وبلاءه بفضل حزم أبى بكر وصلابته فى الحق .

ولنا أن نتصور لو لم يتخذ أبوبكر هذا الموقف الحارم من حركتى المرتدين ومانعى الزكاة ماذا كانت تكون النتيجة ؟!

إننا نسجل - بناء على ما أثبتته التاريخ - أن أبابكر بموقفه هذا قد حمى الإسلام ودعوته من تلك البلبلة التى كانت ستحملها الأحداث لو تراخى فى مواجهتها .

هذا موقف لا بد أن يسجله الدعاة لأبى بكر فى خدمته للإسلام ودفاعه عنه ، وحمايته لقيمه ومبادئه ، ومواجهته للمتربصين به المحاولين الخروج عليه .

وبذلك سارت سفينة الإسلام إلى غايتها ، وبلغت شاطئ الأمان ، فجزى الله أبابكر عن الإسلام والمسلمين خيراً .



الفاروق عمر بن الخطاب

أمير المؤمنين أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي، يلتقى مع النبي ﷺ في جده كعب .

وهو أول من سمي أمير المؤمنين، ولقب بالفاروق؛ لأنه فرق بين الحق والباطل. ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: سألت عمر: لأي شيء سميت الفاروق؟ .

فقال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدرى للإسلام فقلت: الله لا إله إلا هو له الاسماء الحسنى، فما في الأرض نسمة هي أحب إلي من نسمة رسول الله ﷺ فقلت: أين رسول الله ﷺ؟ قالت أختي: هو في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار وحمزة في أصحابه جلوس في الدار، ورسول الله ﷺ في البيت، فضربت الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب!! قال: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ بمجامع ثيابه ثم نثره نثره فما تمالك أن وقع على ركبتيه، فقال: «ما أنت يا عمر؟» قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله. قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

قال: فقلت: يا رسول الله: السنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ .

قال: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ إِنْ مِتُّمْ وَإِنْ حَيَّيْتُمْ» .

قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن، فأخرجناه ﷺ في

صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، ولى كديد^(١) ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت قريش إلى وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلهما، فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق، فرق الله بي بين الحق والباطل^(٢).

في الطريق إلى الإسلام:

كان عمر في مبدأ أمره شديدا على المسلمين حتى عرف عنه ذلك، وقد جرت أمور أعقب بعضها بعضا جعلته يقترب من الإسلام، وجاءت كتب السير بعدة روايات عن بدء إسلامه - نستطيع أن نجمع شتاتها ونلخصها فيما يلي - نفهم منها أن أول ما بدا من رقة عمر نحو المسلمين الذين كانوا يعانون منه: لما أخذ المسلمون في الهجرة إلى الحبشة، وكان فيمن يستعد للهجرة رجل له به صلة قرابة يسمى عامر بن ربيعة، فمر عمر ببيته وهم يتجهزون للهجرة، فتحدث إلى أم عبد الله بنت أبي حثمة قائلا: إنه للانطلاق يا أم عبد الله!؟

قالت: نعم والله. فقال: صحبكم الله!! وتعلق قائلة: ورأيت منه رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا. تقول أم عبد الله ما سبق، وقد سبق أن قالت عنه: «وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا» فلما عاد زوجها قالت: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا!! فكان رده: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم. قال - يأسا من إسلامه لسبق إيذائه لمن أسلم -: لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب.

وهذه هي الخطوة الأولى التي بدا فيها تجاوب من عمر نحو الإسلام.

أما الخطوة الثانية فتتمثل فيما رواه عمر عن نفسه، حيث قال إنه كان يتردد على بعض الحانات مع بعض رفاقه، فلما ذهب إليها لم يجد أحدا، فتوجه إلى حانة أخرى فلم يجد صاحبها، ففكر في الاتجاه إلى الكعبة، وهناك وجد رسول

(١) كديد: صوت

(٢) راجع الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٧٢ الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية/ بيروت

الله ﷺ يصلى، فقال لنفسه: لو أنى استمعت إليه؟ ثم تسلل بحيث يسمع رسول الله ﷺ وإذا به يسمع رسول الله ﷺ يقرأ سورة الحاقة، يقول عمر: فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت فى نفسى: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فإذا به يقرأ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

فقلت: كاهن، فقرأ: ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤١﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٣﴾ الْأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٥﴾ فَمَا يَمْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عِنْدَ حُنَظْرَيْنِ ﴾ (٢).

ويعلق عمر على هذا الموقف بقوله: فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع. وهذا الموقف يمثل الخطوة الثانية فى اقتراب عمر من الإسلام وتفكيره فيه بعدما سمع قراءة رسول الله ﷺ.

ثم جاءت الخطوة الثالثة والأخيرة، وإن كان التيار العام ضد الإسلام فى مكة كان غالباً حتى فكر عمر أن يذهب إلى رسول الله ليقتله، وكان ذلك ذات يوم التقى فيه عمر برجل من قومه يسمى نعيم بن عبد الله، شعر الرجل بأن عمر يبنى أمراً، فسأله: أين تريد يا عمر؟

قال: أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأى أهل بيتى؟

قال: خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد - والله - أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، فعاد عمر أدراجه نحو بيت أخته، وكان هناك خباب بن الارت يعلمها هى وزوجها القرآن، فلما دنا عمر

(١، ٢) الحاقة: ٤٠ - ٤٧

من البيت وأحسن به إلى البيت اختفى خباب، ودخل عمر فقال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها؟.

فقالا: لا شيء سوى حديث جرى بيننا. فقال عمر: فلعلكما صبوتما؟.

فقال له ابن عمه سعيد وزوج أخته: أرايت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ واشتد الغضب بعمر فوثب على ابن عمه يبطش به حتى إنه وطئه وطئا شديدا، ولم تحمل فاطمة ما فعله أخوها بزوجه، فحاولت دفعه عنه، فنالتها يده في وجهها حتى سال منه الدم، فهاج غضبها لما رأت من فعل أخيها وقالت له في تحد - والدم يسيل من وجهها -: يا عمر: إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. وكأنما كان مسيل الدم من وجهها قد أصاب عمر بما يشبه الصدمة الكهربائية، فأدرك أنه ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك، فجلس وطلب أن يعطوه الصحيفة ليرى ما فيها - وكان عمر من القلائل في قریش الذين كانوا يقرأون - فأجابته أخته في حسم: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ. وامثل عمر لطلب أخته فتوضأ، وأخذ في القراءة. ويبدو من بعض الروايات التي نقلت هذا الحدث أن أخت عمر قد داخلها الأمل في إسلام عمر، وكان في الصحيفة الآيات الأولى من سورة طه، فلما قرأ عمر بعضها بدا في نبرات صوته التأثير بما قرأ حتى قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!! وقد دفع ذلك القول من عمر خبابا أن يخرج من مخبئه، ويقول: يا عمر، والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإنني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر.

وهنا كانت نقطة التحول في حياة عمر - رضى الله عنه - فقد توجه إلى حيث رسول الله ﷺ مع أصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم ليعلن إسلامه وإيمانه بالله ورسوله^(١) على الصورة التي سبق عرضها من رواية عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - عن عمر يحكى كيف أسلم.

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٣ وما بعدها. والسيرة النبوية لابن كثير، ج ٢ ص ٣٢ وما بعدها. والرياض النضرة ج ٢ ص ٢٧٥ وما بعدها.

وأراد عمر أن يعلم أهل مكة جميعاً أنه قد أسلم، فسأله عن أكثر الناس إشاعة للأخبار، فدلَّ على رجل من بنى جمح، فذهب إليه وقال له: أعلمت أنى قد أسلمت؟ فما كاد الرجل يسمع كلامه حتى انطلق منادياً بأعلى صوته: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. وعمر يتبعه قائلاً: بل إنى قد أسلمت. واتجه عمر إلى بيت أبي جهل - وكان خاله - فدق عليه الباب، ورحب به، فقال عمر: إنى قد أسلمت، فأغلق أبو جهل الباب في وجهه وهو يقول: قبحك الله. ولم يكتف عمر بذلك بل إنه أراد أن يؤذى في سبيل الإسلام، فلم يترك مكاناً كان يجلس فيه قبل إسلامه إلا ذهب إليه وأعلن فيه أنه قد آمن بالله ورسوله، وكان ذلك سبباً في أن ينهال عليه من هم في المجلس ضرباً وهو يصارعهم، وكان إذا اجتمعوا عليه يعمد إلى أشرفهم فيثب عليه، وقد جاء في ذلك أنه لما أسلم قال: «يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟» فقال النبي ﷺ: «إنا قليل».

فقال عمر: والذي بعثك بالحق نبياً، لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مرَّ بقريش وهم ينظرونه، فقال أبو جهل بن هشام: زعم فلان أنك صبوت.

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فوثب المشركون فوثب عمر على عتبة بن ربيعة فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل أصبعيه في عينيه، فجعل عتبة يصيح، فتنحى الناس عنه، وجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه، ففعل به مثلما فعل بعتبة، فأحجم الناس عنه^(١). وكان ذلك قبل أن يخرج بالمسلمين في صفين هو وحمزة - رضى الله عنهما - لأن الرواية السابقة تقول: إنه بعد أن عاد من جولته مع القرشيين في مجالسهم تم خروج المسلمين على ما سبقت الإشارة إليه.

ولنا أن نعتبر هذه الأحداث التي تتابعت عقب إسلام عمر مباشرة أول موقف دعوى من عمر، حيث أراد أن يتحدى الكفر في عقر داره، ويعلن على الملأ

(١) راجع الرياض النضرة، ج ٢ ص ٢٨٢.

جميعاً أنه قد آمن بالله ورسوله، وهذا الذى حدث يكشف لنا عن شخصية عمر المتحدية التى عبرت عن نفسها فى مواقف تالية لذلك، ومن هذه المواقف ما يلى:

هجرته إلى المدينة:

روى ابن عباس عن على - رضى الله عنهم - قال: ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هاجر تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهما، واختصر عنزته (حريته) ومضى قبل الكعبة، والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعة متمكناً، ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، فقال لهم: شأنت الوجوه، لا يرغب الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تشكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادى. قال على: فما اتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدتهم^(١).

إشارته على أبى بكر - رضى الله عنهما - بكتابة القرآن:

وذلك أنه بعد موقعة اليمامة التى كانت بين المسلمين وبين المرتدين رأى أن كثيرين من حفظة القرآن الكريم قد استشهدوا، فخشى أن يضيع القرآن بموت حفظته. وبعض المصادر تقول: إن عدد المستشهدين من حفظة القرآن فى هذه الموقعة كان سبعين، وبعضها يقول: سبعمائة وسواء كان هذا أو ذاك فإن ذلك يدفع إلى الخشية على القرآن من الضياع، وقد أوسع ذلك عمر، فذهب إلى أبى بكر وأشار عليه بكتابة القرآن. ودار بينهما حوار انتهى باقتناع أبى بكر برأى عمر.

التنافس فى فعل الخير:

وذلك أن عمر أراد أن ينافس أبى بكر فى فعل الخير، فجاء بنصف ماله وتبرع به خدمة للدعوة ومساعدة على النهوض بأمرها، فسأله رسول الله ﷺ: ماذا أبقيت لأهلك يا عمر؟ قال: أبقيت لهم مثل ما جئت به.

(١) راجع الرياض النضرة، ج ١ ص ٢٨٦

ثم جاء أبو بكر بماله، فسأله رسول الله ﷺ: ماذا أبقيت لولدك يا أبا بكر؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقال عمر: والله لا أنافس أبا بكر فضله وتقدمه ومكانته في الإسلام، وصحبته لرسول الله ﷺ وقد وضع كل ذلك في عدة مواقف:

أولها: دعوته إلى مبايعة أبي بكر - رضى الله عنه - البيعة العامة في المسجد.

حيث قال: «إن يكن محمد قد مات فإن الله - عز وجل - قد جعل بين أظهركم نورا تهتدون به، فاعتصموا به تهتدوا لما هدى الله محمدا ﷺ وثاني اثنين، وإنه أولى الناس بأموركم فقوموا فبايعوه»^(١).

وإن كان لنا أن نستنتج فائدة دعوية من موقف عمر هذا فإنه كان حريصا على وحدة المسلمين وحمايتهم من الفرقة والشقاق - رضى الله عنه وأرضاه - .

حرصه على حماية المجتمع من الفساد:

كان عمر - رضى الله عنه - يدرك مسئوليته عن المجتمع الذى أصبح قائما على أمره؛ ولذلك كان إذا جاء الليل وأوى كل إلى فراشه يستريح، ويأنس إلى أهله كان عمر يقضى الليل ساهرا متجولا في طرق المدينة يتحسس أخبار الناس ويعرف ما يشغلهم، وذات ليلة بينما هو يسير إذا به يسمع صوت امرأة في بيتها تقول:

تطاول هذا الليل واخضل جانبه . . . وأرقنى أن لا خليل الأعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه . . . لزل من هذا السرير جوانبه

فلما سمع عمر ما قالت أراد أن يتعرف الحقيقة؛ فقد يكون هناك قضية عامة تكشف عنها هذه المرأة بهتافها في جوف الليل، وقد بدا من قولها أنها تخاف الله وتخشاه، فضرب باب الدار، فقالت المرأة: من هذا الذى يأتى إلى امرأة مغيبة في هذه الساعة؟ فقال: افتحى، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحى فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت،

(١) الرياض النضرة، ج ١ ص ٢٤٠

ما أنت أمير المؤمنين، فرجع بها صوته وجهر بها فعرفت أنه هو ففتحت له، فقال: هيه؟ كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟ قالت: فى بعث كذا وكذا. فبعث إلى عامل ذلك الجند: أن سرح فلانا. فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك. ثم دخل على ابنته حفصة، فقال: أى بنية: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهرا، واثنين، وثلاثة، وفى الرابع ينفذ الصبر. فكان ذلك سببا فى أن أصدر عمر - رضى الله عنه - أمرا بأن لا يغيب زوج فى البعث أكثر من أربعة أشهر، وذلك حرصا على حماية المجتمع من أن يناله فساد من وراء ذلك.

ومن هذه المواقف التى تجرى مع ما سبق فى نطاق واحد أن عمر - رضى الله عنه - كان يمشى فى طرقات المدينة ليلة أخرى فتناهى إليه صوت امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها . . . أم من سبيل إلى نصر بن حجاج . . .
فأرسل فى استدعائه، فإذا هو شاب أحسن الناس وجها، وكان له لمة جميلة، فأمر بشعره فحلق، فإذا هو أكثر حسنا، فقال عمر: والله لا تساكنتى فى بلدة يتمنأك فيها النساء. ثم أعطاه ما يقوم بشئونه من العطاء وأخرجه إلى البصرة.

تحريره وحرصه على سلامة السنة:

ومن ذلك أن أبا موسى الأشعرى استأذن عليه مرة وثانية وثالثة، وكان عمر مشغولا فى بعض أموره فلم يأذن له، وظن عمر أنه سيدخل، إلا أن أبا موسى عاد من حيث أتى. فقال عمر: ما منعك أن تدخل؟ قال: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت، وقد قال النبى ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع» فقال عمر: والله لتقيمن عليه بيعة. فانطلق أبو موسى يطلب بيعة فلقي جماعة من الصحابة فأخبرهم الخبر، وقال: أمتكم من سمعه من رسول الله ﷺ؟ فقام معه أبو سعيد الخدرى وشهد بذلك عند عمر - رضى الله عنه - (١).

(١) راجع فتح البارى، ج ١١ ص ٢٦

حرصه على سيادة العدل:

ومن ذلك أن رجلا جاءه يشتكى الإمام عليا - رضى الله عنه - وكان جالسا مع عمر - رضى الله عنه - فطلب عمر إلى علي أن يجلس بجانب خصمه قائلا: قم يا أبا الحسن إلى جانب خصمك. فتبين في وجه علي الكراهية، فلما انتهى المجلس ذكر له ذلك وقال له: هل غضبت؟ قال: لا، ولكنى لم أرض لأنك كنتى ولم تُكُنَّ.

ومن مظاهر عدله التى سارت بها الركبان أنه جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين: هذا مقام العائذ بك. قال: وما ذاك؟.

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت فرسى فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص فقال: فرسى ورب الكعبة، فلما دنا منى الفرس عرفتها، فقلت: فرسى ورب الكعبة. فقام إلى يضربنى بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، وبلغ ذلك عمراً أباه فخشى أن آتيك، فحبسنى فى السجن، فانفلت منه، وهذا حين آتيتك.

فقال عمر: اجلس. ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد. وقال للمصرى: أقم حتى يأتى.

فدعا عمرو ابنه فقال: أحدثت حدثاً؟ أجريت جنابة؟ قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟! فقدم على عمر، فلما رأى عمر محمد بن عمرو بن العاص قال: أين المصرى؟ قال: هأنذا.

قال: دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين. فضربه حتى أثخنه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بسلطان أبيه، فقال: يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشتفيت وقد ضربت من ضربنى.

قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه.

ثم قال: يا عمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

ثم اتجه إلى المصرى فقال: انصرف راشداً، فإن رابك ريب فاكتب إلى.

ومما يتصل بالعدل والمساواة أن ولدين لعمر اشتركا فى الجهاد إلى بعض الجهات، وعاد الجيش ومعه غنائم كثيرة، فاقترضا من القائد بعض المال اتجرا فيه خلال عودتهما إلى المدينة، ولاحظ عمر عند عودتهما أنهما عادا بأموال كثيرة فسأل عن مصدرها، فأخبراه أنهما قد اتجرا فى مال اقتراضاه من القائد، وأن هذا هو عائد هذه التجارة. فسأل عمر ولديه: هل أعطى القائد كل أفراد الجيش مثلما أعطاكم؟ فقالا: لا، قال عمر: وهو يستشعر المسؤولية التى حملها نحو المسلمين جميعاً: إنما أعطاكم لأنكما ابنا أمير المؤمنين. رداً هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين.

وهكذا يضرب عمر المثل فى الحرص على العدل وسيادة المساواة بين أفراد الأمة جميعاً، لا فرق بين أبناء الخليفة وأى فرد من عامة الناس.

إعطاء القدوة للآخرين فى استشعار المسؤولية:

كان عمر - رحمه الله - يدرك عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، وكان يرى أنه مسئول عن كل فرد فى هذه الأمة، بل عن إزالة العقبات أمام الحيوانات حتى أثر عنه قوله: «والله لو عثرت بغلة بالعراق لسئل عمر لماذا لم يمهدها الطريق؟».

وانطلاقاً من الإحساس بهذه المسؤولية كان يضرب المثل فى الاقتداء به فى تواضعه ورحمته، فقد رأى فى إحدى الليالى وهو يجوب المدينة وما حولها خيمة فيها امرأة ومن حولها أطفالها يتضاغون من الجوع، وأبصر قدرا على النار، فسأل عما فى هذه القدر، فقالت المرأة: فيها ماء أسكتهم به حتى يناموا، فخرج عمر وعاد مسرعاً وهو يحمل كيساً به دقيق وسمن ثم طبخ لهم، ولم يزل عندهم حتى شبعوا، وانصرف وهو يحمد الله على أن أزال كربتهم.

وفى ليلة أخرى رأى رجلاً جالساً أمام خيمة، وسمع أنين امرأة، فعرف الرجل أن امرأته فى حالة مخاض، وليس عندها أحد.

فانطلق مسرعا إلى بيته، وطلب من امرأته أن تحمل معها ما يصلح المرأة لولادتها من خرق ودهن، وحمل معه قدرا بها سمن وحبوب، وحمل القدر ومعه زوجها حتى وصلا إلى الخيمة، فدخلت إلى المرأة، وأوقد نارا ووضع القدر عليها وطبخ فيها والدخان يتخلل لحيته، حتى ولدت المرأة، فنادت زوجته من الداخل: بشر صاحبك بغلام يا أمير المؤمنين. فلما سمع الأعرابي أخذته الهبة، فجعل عمر يهدئ من روعه، وجلس معه حتى أكل، وبعث إلى المراتين في الداخل بطعام، ثم انصرف وطلب من الرجل أن يأتيه ليأمر له بما يصلحه.

وكان يترقب أخبار جيش المسلمين في خراسان، فكان يخرج كل يوم ليرى أى قادم يأتيه بأخبار، وذات يوم قدم فارس فالتقى به عمر يسأله عن أخبار الجيش والرجل يسرع الجرى بفرسه، وعمر يعجرى بإزائه لسمع منه، وظلا كذلك حتى دخلا المدينة، فإذا بالناس يحيون عمر بإمارة المؤمنين، فاضطرب الفارس وقال: هلا أخبرتنى - رحمك الله - أنك أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لا عليك.

خشيتته من الله وتقواه:

لما عاد عمر من الشام إلى المدينة انفرد وحده في الطريق يريد أن يتعرف أخبار الناس، فمر بعجوز في خبائها فاتجه نحوها، فلما رآته قالت: يا هذا: ما فعل عمر؟

قال: هو ذا قد أقبل من الشام.

قالت: لا جزاه الله عنى خيرا.

قال: ويحك، ولم؟

قالت: لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى إلى يومنا هذا دينار ولا درهم.

فقال: ويحك ما يدري عمر حالك وأنت فى هذا الموضع؟

قالت: سبحان الله !! ما ظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها!!

فأخذ عمر يبكى، ويقول: واعمرأه! واخصومأه! كل واحد أفقه منك يا عمر؟!

ثم قال لها: بكم تبيعينى ظلامتك منه؟ فإنى أرحمه من النار.
قالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله.

قال لها عمر: ليس بهزء. فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا، فيينا هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود - رضى الله عنهما - فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فوضعت المرأة يدها على رأسها وقالت: وا سواتاه!! شتت أمير المؤمنين فى وجهه ١٩

فقال لها عمر: لا عليك يرحمك الله. ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد، فقطع قطعة من فروة كان لبسها وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم «هذا ما اشتري عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى إلى يومنا بخمسة وعشرين دينارا، فما تدعى عند وقوفى فى المحشر بين يدى الله - عز وجل - فعمر منه برىء. شهد على ذلك على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود، ثم دفع الكتاب إلى على وقال: إذا أنا تقدمتك فاجعلها فى كفنى»^(١).

عمر يضرب المثل فى المساواة:

روى أن عمر جاءته برود من اليمن، ففرقها على الناس بردا بردا، ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلة منها، فقال: اسمعوا - رحمكم الله - فقام إليه رجل من القوم فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع.

فقال: ولم يا عبد الله؟

قال: لأنك يا عمر تفضلت علينا بالدنيا، فرقت علينا بردا بردا، وخرجت تخطب فى حلة منها.

(١) الرياض النضرة، ج ٢ ص ٣٩٠، ٣٩١

فقال: أين عبد الله بن عمر؟

قال: ههنا يا أمير المؤمنين.

فقال: لمن هذان البردان اللذان على؟

فقال للرجل: عجلت علىّ يا عبد الله، إني كنت غسّلت ثوبى الخلق فاستعرت ثوب عبد الله.

قال الرجل: قل، الآن نسمع ونطيع^(١).

هكذا يضرب عمر - رضى الله عنه - المثل للدنيا كلها فى العدل والمساواة واستشعار المسئولية والخوف من الله، ورعاية مصالح الناس والاهتمام بأمورهم ويقدم القدوة العملية لحكام الدنيا فى التواضع والخضوع للحق، وإذا أردنا أن نحدثهم بمنطق العصر فنقول: يعلم حكام العالم النموذج الأسمى للديمقراطية الحقّة، فرحم الله عمر وجزاه عن الإسلام خيرا.



(١) الرياض النضرة، ج ٢ ص ٣٨٩

الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه

كان إسلام عثمان - رضى الله عنه - مبكرا، فهو أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان سبب إسلامه أن إحدى خالاته كانت حدثه حديثا عن رسول الله ﷺ أخذ يفكر فيه، وكانت له صلة بأبى بكر - رضى الله عنه - فذهب إلى مجلسه وهو مشغول الفكر بما سمعه من خالته، يقول عثمان - رضى الله عنه - : فجلست إليه فرأى مفكرا، فسألنى عن أمرى وكان رجلا متأنيا، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: ويحك يا عثمان، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التى يعبدونها قوما؟! أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر؟! قلت: بلى، فوالله ما كان أسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبا، فلما رأى أقبل على فقال: يا عثمان: أجب الله إلى جنته، فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه.

قال: فوالله ما تمالكيت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. ولقب بذى النورين؛ لأنه تزوج اثنتين من بنات رسول الله ﷺ وهذا هو رأى المشهور فى سبب تسميته بذى النورين، ولكن هناك آراء أخرى، يقول أحدها: إنه سمي بذى النورين لأنه كان يتم القرآن فى الوتر، فالقرآن نور وقيام الليل نور.

وقيل: إنما سمي ذا النورين لأنه ذو كنييتين: يكنى أبا عمرو، وأبا عبد الله، وهناك من قال: إنما تسمى بذلك لأنه إذا دخل الجنة برقت له برقتين، وأخيرا

يقول البعض: إنما سمي بذلك لأنه كان له سخاءان، أحدهما قبل الإسلام والثاني بعده^(١).

وكان أول من هاجر إلى أرض الحبشة هو وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وقال عنه النبي ﷺ: «إن كان عثمان لأول من هاجر إلى الله - عز وجل - بعد لوط».

وكان عثمان - رضى الله عنه - حياً سخياً، محبوباً فى قريش، وفيه يقول قائلهم: «أحبك الرحمن حب قريش عثمان»^(٢).

وكان كاتب سر رسول الله ﷺ وكان إذا جلس جلس أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعثمان بين يديه، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فقد سئلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - إنَّ أحدَ بنيك يقرئك السلام، ويسألك عن عثمان؛ فإن الناس قد شتموه. فقالت: «لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعداً عند نبي الله ﷺ وإن رسول الله ﷺ لمسند ظهره إلى وإن جبريل ليوحى إليه القرآن، وإنه ليقول له: «اكتب يا عثيم» فما كان الله ليتزل تلك المتزلة إلا كريماً على الله ورسوله»^(٣).

وكان عثمان هو الذى انتدبه رسول الله ﷺ ليلغ أسرى المسلمين المستضعفين بحكمة، فلما اشتد البلاء على من كان فى أيدي المشركين من المسلمين دعا رسول الله ﷺ عمر فقال: «يا عمر: هل أنت مبلغ عنى إخوانك من أسرى المسلمين؟».

قال: بأبى أنت والله ما لى بحكمة عشيرة، غيرى أكثر عشيرة منى، فدعا عثمان فأرسل إليهم، فخرج على راحلته حتى جاء عسكر المشركين فعبثوا به وأساءوا له القول، ثم أجاره أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه، وحمله على السرج وردف خلفه، فلما قدم قال: يا ابن عم طُفْ.

(١) راجع الرياض النضرة، ج ٣ ص ٦ - ٨ الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية/ بيروت

(٢) المصدر السابق، ص ٧

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦.

قال: يابن عم: إن لنا صاحباً لا نبتدع أمراً، هو الذى يكون يعمل فنتبع أثره... فلم يدع أحداً بمكة من أسرى المسلمين إلا أبلغهم ما قال رسول الله ﷺ (١).

مواقفه الدعوية:

قد خدم عثمان - رضى الله عنه - الدعوة بماله وأنفق فى سبيل الله أموالاً تجل عن الحصر، والإنفاق فى سبيل الله لون من الجهاد، فالله - سبحانه - يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢).

وقد وسع الله على عثمان وآتاه مما عنده الكثير، فوظف هذه الأموال التى أعطاه الله إياها فى خدمة الدعوة وصالح المسلمين:

أولاً: من ذلك أنه جهز جيش العسرة من ماله الخاص، فقد روى ابن شهاب الزهري أن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - حمل فى غزوة تبوك على تسعمائة وأربعين بعيراً وستين فرساً أتم بها ألف، وقد جاءت روايات كثيرة عن إسهام عثمان - رضى الله عنه - فى تجهيز جيش العسرة، مرة تقول: إن رسول الله لما حث على تجهيز جيش العسرة قام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله على مائة بعير وأقتابها فى سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله على ثلاثمائة بعير بأحلاسها فى سبيل الله (٣).

وعن حذيفة قال: بعث النبى ﷺ إلى عثمان فى جيش العسرة، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار فصبت بين يديه، فجعل النبى ﷺ يقول بيده ويقلبها ظهراً لبطن ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالى ما عمل بعدها» (٤).

ثانياً: شراؤه بثر رومة وتسييله للمسلمين، وذلك أن المهاجرين لما قدموا المدينة

(١) الرياض النضرة، ج ٣ ص ٢٣، ٢٤.

(٢) الأنفال: ٧٢.

(٣) (٤) الرياض النضرة ج ٣ ص ١٧.

استتكمروا الماء، وكان لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع القربة منها بُمْدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «تبيعها بعين في الجنة؟» فقال: يا رسول الله ليس لى ولا لعيالى عين غيرها، لا أستطيع ذلك. فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: اجعل لى مثل الذى جعلت له عينا في الجنة، قال: نعم. قال: اشتريتها وجعلتها للمسلمين^(١).

وهناك رواية أخرى حول بئر رومة تقول: إنها كانت لليهودى، فساومه عثمان فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى منه نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، واتفق على أن يكون لليهودى يوم ولعثمان يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى اليهودى ذلك قال: أفسدت على ركبتي (بئرى) فاشترى النصف بثمانية آلاف درهم.

ثالثاً: توسيع مسجد النبى صلى الله عليه وسلم،

كانت بقعة إلى جانب المسجد، فقال النبي ﷺ: «من يشتريها ويوسعها في المسجد له مثلها في الجنة» فاشتراها عثمان فوسعها في المسجد.

قال الأحنف بن قيس: قدمنا المدينة فجاء عثمان وعليه ملاءة صفراء وقد قنع بها رأسه، قال: هاهنا على؟ قالوا: نعم.

قال: هاهنا طلحة؟ قالوا: نعم. قال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من يتاع مربد بنى فلان غفر الله له» فابتعته بعشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً فأتيت النبي ﷺ فقلت: قد ابتعته. فقال: «اجعله في مسجدنا وأجره لك؟» فقالوا: اللهم نعم. فقال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو: أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من يتاع بئر رومة غفر الله له» فابتعتها بكذا وكذا ثم أتيت فقلت: قد ابتعتها. قال: «اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك؟» فقالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نظر في

(١) راجع الرياض النضرة، ج ٣ ص ١٨، ١٩

وجوه القوم فقال: «من يجهز هؤلاء غفر الله له» - يعنى جيش العسرة - فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالا ولا خطاما؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: اللهم اشهد - ثلاثا - (١).

رابعاً: تشييد مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن، وسقفه بالجريد، وعمده خشب النخل، وزاد فيه عمر وبناء على بنائه على عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً، وفى عهد عثمان زاد فيه زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج.

وفى ذلك توسعة للمسجد لتستوعب زيادة أعداد المسلمين التى تنمو يوماً بعد

يوم.

خامساً: إجابة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم إلى توسيع مسجد الكعبة:

وذلك: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أهل مكة: «يا فلان: ألا تبغى دارك أزيدها فى مسجد الكعبة بيتاً أضمنه لك فى الجنة؟» فقال الرجل: يا رسول الله ما لى بيت غيره، فإن أنا بعثت دارى لا يأوينى وولدى بمكة شىء. فبلغ ذلك عثمان - وكان الرجل صديقاً له فى الجاهلية - فلم يزل به عثمان حتى اشترى منه داره بعشرة آلاف دينار، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: بلغنى أنك أردت من فلان داره لتزيدها فى مسجد الكعبة بيتاً تضمنه له فى الجنة. وإنما هى دارى، فهل أنت آخذها بيتاً تضمنه لى فى الجنة؟ قال: نعم، فأخذها منه وضمن له بيتاً فى الجنة وأشهد له على ذلك المؤمنين (٢).

وهكذا ترى أن عثمان - رضى الله عنه - قد جعل ما أفاء الله عليه من نعمة الغنى فى خدمة الإسلام والمسلمين وخدمة الدعوة، فأحياناً يتكفل بتجهيز

(١) راجع الرياض النضرة، ج ٣ ص ١٩

(٢) راجع الرياض النضرة ج ٣ ص ٢٢

الجيش، وأحياناً يسابق إلى التضحية بالمال ليوسع مسجد الكعبة أو مسجد رسول الله ﷺ وأحياناً يبذل أمواله ليسهل على المسلمين الحصول على ما يحتاجون إليه من ماء يشربونه لا يتغنى بذلك إلا وجه الله تعالى، والفوز بجنته، وإلى جانب ذلك فكان يشارك في الجهاد في الأوقات التي يحين فيها مواعده وهو متواجد بالمدينة.

وقد ختم أعماله الدعوية بكتابة المصحف على لغة قريش قطعاً للخلاف بين المسلمين بسبب اختلاف أوجه القراءة، وقد كون لذلك لجنة برئاسة زيد بن ثابت كاتب الوحي، وعضوية ثلاثة من قريش، وكان يراجع بنفسه ما كتب ليتأكد من صحة المكتوب. رحم الله عثمان وأجزل مثوبته.



أبو الحسن أمير المؤمنين على بن أبي طالب

ابن عم النبي ﷺ وأخوه وربييه وزوج ابنته فاطمة الزهراء - رضى الله عنها -
رابع الخلفاء الراشدين .

كانت حياته - رضى الله عنه - تضحية متتابعة فى سبيل الإسلام، أسلم
صغيرا . ويرى كثير من كتاب السير أنه أول من أسلم، ولكن المتعارف عليه عند
علماء الأمة أن خديجة أول من أسلم من النساء، وعليها أول من أسلم من
الصبيان، وأبا بكر أول من أسلم من الرجال، وزيد بن حارثة أول من أسلم من
الموالى .

ومن المعقول أن يكون أول من أسلم على الإطلاق خديجة - رضى الله عنها
- ثم على، فزيد؛ لأنهم كانوا يساكنون رسول الله ﷺ ثم أبو بكر .
قصة إسلامه:

وفى قصة إسلامه ما يفيد أنه أول من أسلم بعد خديجة - رضى الله عنها -
فقد روى صاحب أسد الغابة نقلا عن ابن إسحاق: أنه دخل بعد إسلام خديجة
يوم فوجدها تصلى مع رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ما هذا؟
فقال النبي ﷺ: «دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله
وإلى عبادته وكُفِّرَ باللات والعزى» .

فقال على: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا
طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره .

فقال له: يا على: إن لم تسلم فاكم. فمكث على تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب عليّ الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت عليّ يا محمد؟

فقال له رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد. ففعل علي وأسلم»^(١).

والحق أن حياة علي - رضى الله عنه - كلها كانت كفاحا وتضحية في سبيل الإسلام منذ أن أسلم حتى لقي ربه شهيدا.

وفيما يلي استعراض موجز لبعض مواقفه الدعوية - رضى الله عنه - في حياة النبي ﷺ وبعد النبي حتى لقي ربه شهيدا.

مببته مكان النبى - صلى الله عليه وسلم - ليلة الهجرة:

وذلك أن قريشا قد حزمت أمرها على أن تختار عددا من شباب قريش يغتالون رسول الله ﷺ حين يخرج من بيته، وقد استعدوا لذلك وأخذوا أماكنهم أمام بيت رسول الله ﷺ وفى أيديهم سيوفهم مشحونة ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم أن يحاربوا قريشا جميعا ويرضون بالدية، ولكن الله - سبحانه - أخبر نبيه بما يبتوا العزم عليه، وأمره بالهجرة إلى المدينة فى تلك الليلة، واستدعى رسول الله ﷺ عليا، وأمره أن يبيت فى مكانه تلك الليلة وأن يتسجى ببرده، وأخبره أنه لن يخلص إليه منهم أذى، وأمره أن يرد الأمانات التى عنده لأصحابها ثم يلحق به بعد ثلاث إلى المدينة.

وخرج رسول الله ﷺ والقوم وقوف وقد غشى الله على أبصارهم، وخرج رسول الله ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاءَ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ (٢).

(١) راجع أسد الغابة، ج ٤ ص ٩٢ كتاب الشعب

(٢) سورة يس، الآيتان: ٨، ٩

ووضع التراب على رؤوسهم، وظلوا واقفين حتى الصباح، وكانوا من وقت لآخر ينظرون من ثقب الباب فيجدون عليا - رضى الله عنه - نائما منسجى تحت برد رسول الله فيظنون أنه هو، حتى هب في الصباح فاكتشفوا أنهم قد خاب مسعاهم.

وقيام على بهذه المهمة المحقوفة بالمخاطر الجسام يكشف مدى استعداداته للتضحية في سبيل الدعوة وصاحبها ﷺ.

تضحيته في سبيل الإسلام في مواقف عدة:

شهدت معارك الإسلام ومواجهته لقوى الباطل مواقف متعددة للإمام على - رضى الله عنه - كان فيها مثال الفارس الذى نذر نفسه للدفاع عن الإسلام والتضحية في سبيله في أيام بدر وأحد والخندق وخيبر وسواها.

فأما يوم بدر فكان على ممن خرج للمبارزة، وأمكنه الله من الوليد بن عتبة وكان له في ذلك اليوم مع عمه حمزة صولات وجولات.

وفي يوم الخندق تصدى لعمر بن عبد ودّ لما اقتحم الخندق ودعا للمبارزة حتى أمكنه الله منه، وذهب الله بعدو الله عمرو بن عبد ود إلى النار.

وفي يوم خيبر فتح الله على يديه خيبر بعد أن قال رسول الله ﷺ: «سأعطي الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله».

حرصه على المساواة:

فقد كان يوما جالسا مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أيام خلافته فجاء رجل يشكو عليا - رضى الله عنه - فقال له عمر: قم يا أبا الحسن إلى جوار خصمك، وكان عمر - رضى الله عنه - قد لمح في وجهه على علامات عدم الرضا.

فلما انتهى مجلس القضاء سأل عمر عليا: هل وجدت في نفسك لأنى طلبت إليك أن تقف إلى جانب خصمك؟.

قال على: لا، لم يكن ذلك سبب الموجدة، إنما وجدت في نفسي لأنك كنيته ولم تكنه.

وذلك لأن الكنية تشعر بالتقدير عند العرب، وأحس على أنه لم يتساو خصمه معه لعدم تكنته.

انصياعه للحق:

لما كان على أمير المؤمنين سقط درعه، فالتقطه يهودى، فلما عرف به على - رضى الله عنه - قال: هذا درعى، وليس يعنى أنه مادام الخليفة فله أن يأخذ الدرع بما له من سلطان الخلافة، بل رفع الأمر إلى القاضى شريح.

فقال شريح: إيت بشهودك يا أمير المؤمنين. فقال: الحسن. قال القاضى: الحسن ابنك.

قال على: قنبر. قال القاضى: قنبر خادمك.

وذلك أن نظام القضاء فى الإسلام لا يقبل شهادة الابن لأبيه ولا الخادم لسيده وإزاء ذلك أعطى القاضى الدرع لليهودى، فلما رأى اليهودى ذلك أقر بأن الدرع ليس له، وإنما هى لعلى - رضى الله عنه - وأعادها إليه، ثم كان ذلك سببا لأن أعلن إسلامه.

ومن المواقف الدعوية فى حياة الإمام على - رضى الله عنه - تصديه لأهل الأهواء والبدع من الخوارج والقائلين بالقدر، وقد أعطى الإمام على - رضى الله عنه - قدرة على الإقناع وعلمًا واسعًا وفهما عميقًا لكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وكيف لا وهو الذى تربى فى بيت النبوة ونهل من معينها صبيًا ويافعًا! ولما صار رجلًا تزوج بفاطمة - رضى الله عنهما - وقد هيا له ذلك فرصة نادرة لم تنهيا لغيره، فكان - كما يقول - إذا سأله أجابه وإذا سكت بدأه بالحديث؛ ولذلك كان تميزه فى الفهم والقضاء والمعرفة الواعية بقيم الإسلام ومبادئه. وقد استرعت

تلك الظاهرة بعض معاصريه فسألوه عن سببها، فكان جوابه: «إني كنت إذا سأله أنبأني، وإذا سكنت ابتدأني»^(١).

ومن التوجيهات التي زود بها رسول الله ﷺ عليا لما بعثه قاضيا إلى اليمن حينما استشعر عظم المسئولية وهو لا يزال حدثا، وفي ذلك يقول - رضى الله عنه - : «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا، فقلت يا رسول الله: ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء؟».

فقال: «إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلَا تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الْآخِرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ».

قال علي: فمارلت قاضيا، وما شككت في قضاء بعد^(٢).

كل ذلك قد أعطى عليا التوفيق في الاستدلال، والقدرة على الإقناع، ودفع الشبهات، وإسكات من لعبت بعقولهم الأهواء.

ومن ذلك رده على من سأله عن القدر:

فقد سأله رجل: ما تقول في القدر؟

قال: ويحك، أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟

فقال الرجل: نعم.

قال علي: أسلم صاحبكم، وقد كان كافرا.

فقال الرجل: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها أقوم وأقعد، وأقبض وأبسط؟

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع بيروت ج ٢ ص ٣٣٨

(٢) راجع معالم السنن للخطابي شرح سنن أبي داود ج ١ ص ١٦٢ وسنن ابن ماجه ج ٢ ص ٧٧٤ وفيها «وما شككت بعد في قضاء بين اثنين» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والاستيعاب ج ٨ ص ١٥٢ بأسفل الإصافة. تحقيق طه الزينى.

قال على : إنك بعد فى المشيئة .

أما إنى أسألك عن ثلاث ، فإن قلت فى واحدة منها : (لا) كفرت ، وإن قلت : نعم فأنت أنت .

فمدّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول .

فقال له على - رضى الله عنه - : أخبرنى عنك أخلقك الله كما شئت أو كما شاء ؟ .

قال : بل كما شاء .

قال : قم فلا مشيئة لك^(١) .

وهكذا نرى قدرة الإمام - رضى الله عنه - فى دفع ما دار فى رأس الرجل من شبهة بالحوار والإقناع ، والسؤال والجواب الذى جعل الرجل يسلم بما يرى الإمام ، وتزول من نفسه الشبهة التى علقت بها من جراء قوله بالقدر .

حجاجة الخوارج وإبطال شبهتهم:

من المواقف الدعوية فى حياة الإمام على - رضى الله عنه - حوار مع الخوارج لما خرجوا عليه بعد أن كانوا معه - وكان ذلك عقب وقعة التحكيم التى لجأ إليها أهل الشام بعد ما رأوا أن الدائرة ستقع عليهم - . .

وكان الإمام يرى أنهم أخطأوا ، وعليه أن يبين لهم الخطأ الذى وقعوا فيه لعلمهم يعودون إلى الصواب ، وهو بعمله هذا يطبق روح الإسلام فى الدعوة إلى الحق ، والتحلى بالصبر ، وتوجيه المخطئ لعله يفيق إلى الحق .

وكان الخوارج قد نزلوا قرية يقال لها «حروراء» فتوجه إليهم الإمام على - رضى الله عنه - وناداهم : يا هؤلاء : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء

قال : فليبرز إلى .

(١) راجع العقد الفريد ، ج ٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

فخرج إليه ابن الكواء فقال له على: يا ابن الكواء: ما أخرجكم علينا بعد رضاكم بالحكمين ومقامكم بالكوفة؟

قال ابن الكواء: قاتلت بنا عدوا لا تشك في جهاده، فزعمت أن قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقا وحكمت كافرا، وكان من شكك في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم: كتاب الله بيني وبينكم، فإن قضى على بايعتكم، وإن قضى عليكم بايعتموني، فلولا شكك لم تفعل هذا والحق في يدك.

فقال على: يا ابن الكواء: إنما الجواب بعد الفراغ، أفرغت فأجيبك؟
قال: نعم.

قال على: أما قتالك عدوا لا أشك في جهاده فصدقت، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم. وأما قتلانا وقتلاهم فقد قال الله في ذلك ما يستغنى به عن قولي. وأما إرسالي المنافق، وتحكيמי الكافر: فأنت أرسلت أبا موسى مبرنسا، ومعاوية حكم عمرأ، أتيت بأبي موسى مبرنسا، فقلت: لا نرضى إلا أبا موسى، فهلا قام إلى رجل منكم فقال: يا على لا تعط هذه الدنيا فإنها ضلالة؟
وأما فولي لمعاوية: إن جرنى إليك كتاب الله تبعتك، وإن جرك إلى تبعتني زعمت أني لم أعط ذلك إلا من شك، فقد علمت أن أوثق ما في يدك هذا الأمر فحدثني ويحك عن اليهودي والنصراني ومشركي العرب أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟

قال: بل معاوية وأهل الشام أقرب.

قال على: أفرسول الله ﷺ كان أوثق بما في يديه من كتاب الله أو أنا؟
قال: بل رسول الله.

قال: أفرأيت الله - تبارك وتعالى - حين يقول: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

(١) القصص: ٤٩

أما كان رسول الله يعلم أنه لا يؤتى بكتاب هو أهدي مما فى يديه؟
قال: بلى.

قال: فلم أعطى رسول الله القوم ما أعطاهم؟
قال: إنصافا وحجة.

قال: فإنى أعطيت القوم ما أعطاهم رسول الله.
قال ابن الكواء: فإنى أخطأت، وهذه واحدة، ردى.
قال على: فما أعظم ما نقمتهم على؟

قال: تحكيم الحكمين، نظرنا فى امرنا فوجدنا تحكيمهما شكا وتبذيرا!
قال على: فمتى سمى أبو موسى حكما؟ حين أرسل أو حين حكم؟
قال: حين أرسل

قال: أليس قد سار وهو مسلم وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله؟
قال: نعم

قال على: فلا أرى الضلالة فى إرساله.

فقال ابن الكواء: سمى حكما حين حكم؟

قال: نعم إذا فإرساله كان عدلا، أرايت يا ابن الكواء لو أن رسول الله ﷺ
بعث مؤمنا إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله، فارتد على عقبه كافرا، كان
يضر نبي الله شيئا؟

قال: لا.

قال على: فما ذنبى إن كان أبو موسى ضل، هل رضيت حكمه حين حكم؟
أو قوله إذ قال؟

قال ابن الكواء: لا، ولكنك جعلت مسلما وكافرا يحكمان فى كتاب الله.

قال على: ويلك يا ابن الكواء!! هل بعث عمراً غير معاوية؟ وكيف أحكمه وحكمه على ضرب عنقي؟ إنما رضى به صاحبه كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المؤمن والكافر يحكمان فى أمر الله، أرايت لو أن رجلاً مؤمناً تزوج من يهودية أو نصرانية فخافا شقاق بينهما ففزع الناس إلى كتاب الله، وفى كتابه ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (١).

فجاء رجل من اليهود أو رجل من النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما فى كتاب الله فحكما؟!

قال ابن الكواء: وهذه أيضا أمهلنا حتى ننظر.

فانصرف عنهم، ثم خرج لهم بعد ذلك فقال: يا ابن الكواء: إنه من أذنب فى هذا الدين ذنباً يكون فى الإسلام حدثاً استنبأ من ذلك الذنب بعينه، وإن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه وضلال ما دخلت فيه.

قال ابن الكواء: إنا لا ننكر أنا قد فُتْنَا (٢).

صوته إلى العلم والعمل:

كان على - رضى الله عنه - قد أوتى عقلاً واعياً، وقلباً آمناً، ولساناً معبراً، وكان مسلكه فى الحياة قدوة تتراءى للناس فى السلم والحرب، والشدة والرخاء، والرضا والغضب، والحب والبغض، يحاول من خلالها ترجمة قيم الإسلام وحمل الناس عليه، وكان يدرك أثر العلم فى الرقى الإنسانى، ونتيجة العمل الصالح فى ازدهار المجتمع، ورعاية مصالح الآخرين، ولذلك كانت كلماته وتوجيهاته أدلة هادية للخير داعية إلى الاستقامة على الجادة، وكان يدعو المسلمين إلى أن يضعوا قيم الإسلام نصب أعينهم، لا يصرفهم عنها صارف؛ حتى ينالوا خيري الدنيا والآخرة.

ومن أقواله فى ذلك: «تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا تكونوا من أهله،

(١) النساء: ٣٥

(٢) العقد الفريد ج ٥ ص ١٠٩ - ١١١ وتاريخ البيهقي ج ٢ ص ١٩٢ مع اختلاف فى التفاصيل.

ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون.

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا. ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً.

ألا وإن من اشتاق الآخرة سها عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن طلب الآخرة سارع إلى الطاعات، ومن رهد في الدنيا هانت عليه مصائبها، ألا وإن لله عبادة شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحة طويلة.

إذا رأيتهم صافين أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم يجارون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما نهارهم فظماء حلمااء بررة أتقياء كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بهم من مرض، ولكنه الأمر العظيم.

إصطاء القدوة في عدم الاستكانة لأهواء الدنيا

لم يكن للدنيا عليه سلطان، بل أثر عنه أنه كان يقول: يادنيا هري هري. وكان في خلافته يبدو كواحد من الناس، بل مثل أقل عامة الناس في الملبس والمأكل والمسكن، فلما ذهب إلى الكوفة رفض أن ينزل في قصر الإمارة، ولما ألح عليه أصحابه في ذلك أجاب بحزم: «قصر الخبال لا أنزله أبداً» وفضل أن ينزل في الأرض الخلاء والدار المهجورة، وكان يلبس الخشن من الثياب، ويطلب إليه أصحابه أن يلبس من الثياب ما يناسب مقام الإمارة فيقول لهم: «هذا الثوب يصرف عني الزهو ويساعدني على الخشوع في صلاتي، وهو قدوة صالحة للناس كيلا يسرفوا ويتبدخوا، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

ذلك أن الدنيا عنده جسر للعبور إلى الدار الآخرة، فمن أصلح في دنياه عبر الجسر بسلام ووصل إلى دار النعيم، وهي ميدان يتسابق فيه الصالحون إلى

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣

الخيرات، يقول فى ذلك: «إن المضمار اليوم وغدا السباق، ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل».

فمن قصر فى أيام أملة قبل حضور أجله فقد خاب عمله، ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها، ألا وإن من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى حاد به الضلال.

ألا وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البرّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر.

وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصدّ عن الحق، وإن طول الأمل ينسى الآخرة»^(١).

وليس معنى هذا أن الإمام يرى الانصراف عن الدنيا كما يفعل العاجزون، وإنما يحذر من استعبادها للإنسان، ويرى أنها ميدان يحقق فيه السبق من أخذها بحقها والتزم بتوجيهات الوحي فى التعامل معها، فالعمل الصادق يؤدى إلى النجاة، فهى دار عمل لا دار لهو، وفى ذلك يقول: «الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى وزاد لمن تزود فيها، مهبط وحى الله، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة»^(٢).

توجيه أصحابه إلى التمسك بمعالي الأمور

فى غمرة الصراع بين الإمام على ومعاوية، وما كان يأتية معاوية ومن معه من أمور لا ترضى عنها قيم الإسلام فى السلم والحرب، غاظ ذلك بعض أصحاب الإمام، ونمى إليه أن اثنين من كبار أتباعه يلعنون معاوية وأهل الشام، فبعث إليهما يأمرهما بالكف عن الشتم واللعن، فقدمتا عليه وسألاه: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟^{١٩}.

(١، ٢) راجع: خلفاء الرسول، ص ٤٨١ - ٤٨٥.

أجاب: بلى ورب الكعبة.

قال: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟

قال الإمام - رضى الله عنه -: كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من صلاتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغي من لجّ به^(١).



(١) راجع : خلفاء الرسول، ص ٤٩٨، ٤٩٩

مصعب بن عمير

مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وكنيته أبو عبد الله، أحد السابقين إلى الإسلام، منذ أن كان رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، إلا أنه كتم إسلامه خوفاً من أمه؛ كان منعماً في صباه وشبابه، ولما علم أهله بإسلامه قيدوه وحبسوه، وظل في حبسه إلى أن واثته الفرصة فهاجر إلى الحبشة مع من هاجر، ذكر ابن عبد البر عن الواقدي بسنده قال: كان مصعب بن عمير فتى مكة شاباً وجمالاً وتياً، وكان أبواه يحبانّه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول: ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير.

ولما بايع رسول الله ﷺ أهل يثرب بيعة العقبة، بعث مصعباً إلى يثرب يعلم أهلها القرآن ويدعو إلى الإسلام، حتى ليتمكن أن يقال إن مصعباً أول داعية كلفه رسول الله أن يقوم بأمر الدعوة خارج مكة قبل أن يهاجر. واختيار رسول الله ﷺ له ليقوم بهذه المهمة دليل على ما كان يتمتع به من صفات وإخلاص وصدق جعلت رسول الله ﷺ يوجهه إلى يثرب ليمهد الطريق للمسلمين حين يهاجرون إليها.

وفي يثرب كان له دور ملحوظ في اعتناق السواد الأعظم من سكانها الإسلام على يديه، وكان يصحبه أسعد بن زرارة ويتنقلان بين مضارب القبائل والأسر يدعوهم إلى الإسلام.

وذاث يوم اتجها إلى بيوت بنى عبد الأشهل - قوم سعد بن معاذ - وكان أسعد ابن زرارَة ابن خالة أسعد، وكان سعد فى مجلس قومه، فجاءت الأخبار أن أسعد ابن زرارَة ومصعبا قد جلسا إلى قومه يدعوانهم إلى الإسلام، فقال سعد لآسید ابن الحضیر: لا أبأ لك!! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وأنهبهما عن أن يأتيا دارينا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زرارَة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارَة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

فوقف عليهما متشتما قائلا: ما جاء بكما إلينا؟

تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة.

قال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به فى إشراقه وتسهله.

ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى.

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديههم، فلما نظر

إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، قالاً: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك.

فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذى ذكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً. ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما.

فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة: أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى ديارنا بما نكره؟
وكان أسعد بن زرارة لما أبصر بسعد قادماً قال لمصعب: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً، ورجبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس، وأخذ مصعب يعرض عليه الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، فعرفا تأثير ذلك فى أسارير وجهه، وأنه قد اقتنع بما سمع، فسألهما: ماذا تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ أجابا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين.

فعاد إلى نادى قومه، ومعه أسيد بن حضير، ولما أبصروا به قادماً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل: كيف تعلمون أمرى فيكم؟
قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيية.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

يقول راوى هذا الموقف: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة^(١)!!

وظل مصعب فى دار أسعد بن زرارة يواصل الدعوة إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور أهل يثرب إلا دخلها الإسلام، وهكذا قام مصعب بهذا الواجب على خير وجه.

ويلاحظ أن مصعبا قد استعمل أسلوب الحكمة فى عرض قضية الإسلام، فصادف قلوبا نقية مستعدة لقبول الهداية.

وظل مصعب - رضى الله عنه - يدعو للإسلام بلسانه وبيانه، ولما أقبلت قريش برجالها وعددها وعدتها فى بدر وأحد كان فى مقدمة الصفوف، وكان يحمل لواء المهاجرين يوم بدر، ويوم أحد أبلى بلاء حسنا حتى استشهد راضيا مرضيا.

ومن المثير للدهشة أن هذا الذى كان يرتدى أغلى الثياب، ويعيش فى سعة ورغد فى مكة قد ترك ذلك كله، ولما استشهد يوم أحد لم يكن له إلا ثوب واحد إذا غطى به رأسه ظهرت رجلاه، وإذا غطى به قدماه ظهرت رأسه. فأشار رسول الله أن يوضع على قدميه بعض الحشائش، وكان اللواء معه، فلما استشهد أمر رسول الله بإعطائه لعلى بن أبى طالب.



(١) راجع: سيرة النبی لابن هشام، ج ٢ ص ٤٣ - ٤٥ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

قائمة المراجع

القرآن الكريم

- ١ - الأدب المفرد للإمام البخارى
- ٢ - الاستيعاب فى تاريخ الأصحاب لابن عبد البر
- ٣ - أسد الغابة فى تاريخ الصحابة لابن الأثير
- ٤ - إتحاف برنابا لبرنابا
- ٥ - أنساب الأشراف للبلاذرى
- ٦ - البداية والنهاية لابن كثير
- ٧ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى
- ٨ - تاريخ يعقوبى لليعقوبى
- ٩ - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر
- ١٠ - خلفاء الرسول لخالد محمد خالد
- ١١ - الدين د. محمد عبد الله دراز
- ١٢ - الرياض النضرة فى مناقب العشرة أبو جعفر أحمد المشهور بالمجد الطبرى
- ١٣ - زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم
- ١٤ - سنن ابن ماجه لابن ماجه

- ١٥ - السيرة النبوية لابن كثير
- ١٦ - السيرة النبوية لابن هشام
- ١٧ - صحيح مسلم بشرح النووي للإمام مسلم
- ١٨ - طبقات ابن سعد لمحمد بن سعد
- ١٩ - العقد الفريد لابن عبد ربه
- ٢٠ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني
- ٢١ - فقه السنة للشيخ سيد سابق
- ٢٢ - القاموس المحيط للفيروز آبادي
- ٢٣ - قصص الأنبياء لابن كثير . تحقيق د . مصطفى عبد الواحد
- ٢٤ - الكثر الثمين في أحاديث النبي الأمين . عبد الله الصديقي الحسني
- ٢٥ - لسان العرب لابن منظور
- ٢٦ - الله عباس محمود العقاد
- ٢٧ - مختصر صحيح مسلم للمنذري
- ٢٨ - مروج الذهب للمسعودي
- ٢٩ - مسار الدعوة في العهد المكي د . محمد إبراهيم الجيوشي
- ٣٠ - معالم السنن للخطابي
- ٣١ - النكت والعيون للماوردي
- ٣٢ - نهاية الأرب للتويري
- ٣٣ - وسائل الدعوة د . محمد إبراهيم الجيوشي

المحتويات

٧	١- مقدمة
١٣	٢- نشأة العقيدة الدينية عند البشر
٢٠	٣- رأى علماء الغرب فى نشأة الدين
٢٨	٤- دعوة نوح عليه السلام
٢٩	- مراحل دعوة نوح عليه السلام
٢٩	- أولا : دعوته إلى التوحيد
٣٠	- المناهج والأساليب
٣١	- ثانيا : اتهام قومه له
٣٢	- ثالثا : استمرار نوح فى دعوته دون ملل
٣٣	- رابعا : تذكيره إياهم بنعم الله عليهم
٣٤	- خامسا : اتهام قوم نوح له بالجنون
٣٤	- سادسا : أمر الله نوحا أن يصنع الفلك
٣٤	- سابعا : الأخذ فى صنع الفلك
٣٥	- ثامنا : دعاء نوح على قومه
٣٥	- تاسعا : أمر الله سبحانه لنوح - عليه السلام - أن يحمل فى السفينة
٣٦	- من كل زوجين
٣٦	- عاشرا : الطوفان ودعوة نوح ابنه أن يركب معهم
٣٧	- حادى عشر : دعاء نوح ربه من أجل ابنه
٣٨	- الدروس المستفادة
٣٩	٥- دعوة إبراهيم عليه السلام
٤٣	- بناء البيت ودعاء إبراهيم وإسماعيل

- ٤٤ - الأذان بالحج
- ٤٥ - حوار إبراهيم مع ضيوفه من الملائكة
- ٤٦ - التلطف مع أبيه
- ٤٧ - التدرج مع قومه فى الحوار الهادئ
- ٤٨ - إظهار عجز آلهة قوم إبراهيم
- ٥٠ - مواجهة قومه بالإعلان عن بطلان عقيدتهم
- ٥٢ - تحدّى مدعى الألوهية وإفحامه
- ٥٣ - الدروس المستفادة
- ٥٤ - دعوة كلّيم الله موسى عليه السلام ،
- ٥٤ - ظروف ولادة موسى وأسبابها
- ٥٦ - التقاط آل فرعون له
- ٥٧ - تحقيق وعد الله بعودة موسى إلى أمه
- ٥٨ - موسى فى بيت فرعون
- ٥٩ - الخروج من مصر إلى أرض مدين
- ٦٠ - لقاء موسى بشعيب عليهما السلام
- ٦٢ - اختيار الله لموسى
- ٦٣ - دعاء موسى - عليه السلام - ربه أن يؤيده
- ٦٤ - أمر الله لموسى وهارون أن يتجها إلى فرعون
- ٦٥ - اللقاء بين موسى - عليه السلام - وفرعون
- ٦٧ - إبطال كيد السحرة
- ٧٠ - طلب فرعون من هامان أن يبنى له صرحا
- ٧٠ - استبداد الغيظ بفرعون
- ٧٢ - ابتلاء الله آل فرعون بألوان من العذاب
- ٧٣ - انفلاق البحر ونجاة بنى إسرائيل
- ٧٦ - مظاهرتهم بنى إسرائيل ،
- ٧٦ - طلب بنى إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهها

٧٦	- اتخاذهم العجل
٧٨	- طلبهم رؤية الله جهرة
٧٨	- تبرمهم بنعمة الله عليهم
٧٩	- إيدأؤهم موسى - عليه السلام - بكثرة الأسئلة
٧٩	- رفضهم الاستجابة لأمر موسى
٨٠	- تحريفهم للكتب السماوية
٨١	٨- اللقاء بين نبي الله موسى والعبد الصالح
٨٦	- الدروس المستفادة
٨٩	٩- دعوة عيسى عليه السلام
٨٩	- ميلاد مريم ونشأتها
٩١	- ميلاد عيسى عليه السلام
٩٢	- حديث عيسى في المهد
٩٥	- نبوة المسيح عليه السلام
٩٧	- وشاية اليهود بعيسى ومحاولة قتله
٩٨	- الدعوة إلى التوحيد
٩٩	- المناهج والأساليب
١٠١	١٠- الدروس المستفادة من دعوات أولى العزم من الرسل
١٠٣	١١- مراحل الرسالة الخاتمة في العهد النكي
١٠٣	- تمهيد
١٠٥	- التمهيد للنبوة
١٠٥	- مرحلة النبوة
١٠٦	- الجهر بالدعوة
١٠٨	- مرحلة المواجهة
١٠٩	- التهكم
١١٣	- المزج بين الإغراء والتهديد
١١٥	- التحدى

١١٨	١٢- وسائل قريش في الصد عن الدعوة
١٢٠	١٣- الهجرة إلى الحبشة ودوافعها ونتائجها
١٢٢	١٤- المقاطعة ثم بيعة العقبة والهجرة
١٢٤	١٥- مراحل الدعوة في العهد المدني
١٢٥	- بناء المجتمع الجديد
١٢٨	- حماية المجتمع ورد العدوان
١٣٢	- صلح الحديبية
١٣٤	- نتائج صلح الحديبية
١٣٥	١٦- عالمية الدعوة
١٣٨	١٧- إكمال الدين وإتمام النعمة
١٣٩	- خطبة الوداع
١٤٢	١٨- منهج الإسلام في علاج القضايا العامة
١٤٤	١٩- من خصائص الإسلام
١٥٣	٢٠- الدعاة من الصحابة رضوان الله عليهم
١٥٥	أولا : الصديق أبو بكر ، رضى الله عنه
١٥٦	- أحداث مهدت لإسلامه
١٥٨	- دعوته إلى الإسلام
١٥٩	- أول خطيب يدعو إلى الإسلام
١٦٠	- تعرضه للأذى دفاعا عن رسول الله
١٦٣	- عتق عدد من الأرقاء المسلمين
١٦٣	- تسخير أمواله في خدمة الدعوة
١٦٣	- مصاحبته لرسول الله ﷺ في مواسم الحج
١٦٥	- مواقف دعوية في حياة أبى بكر بعد توليه الخلافة
١٧١	ثانيا : الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه
١٧٢	- في الطريق إلى الإسلام
١٧٦	- هجرته إلى المدينة

- ١٧٦ - إشارته على أبي بكر - رضى الله عنهما - بكتابة القرآن
- ١٧٦ - التنافس فى فعل الخير
- ١٧٧ - حرصه على حماية المجتمع من الفساد
- ١٧٨ - تحريره وحرصه على سلامة السنة
- ١٧٩ - حرصه على سيادة العدل
- ١٨٠ - إعطاء القدوة للآخرين
- ١٨١ - خشيته من الله وتقواه
- ١٨٢ - عمر يضرب المثل فى المساواة
- ١٨٤ - ثالثا : الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه :
- ١٨٦ - مواقفه الدعوية
- ١٨٧ - توسيع مسجد النبى ﷺ
- ١٨٨ - تشييد مسجد رسول الله ﷺ
- ١٨٨ - إجابة دعوة النبى ﷺ إلى توسيع مسجد الكعبة
- ١٩٠ - رابعا : أبو الحسن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه
- ١٩٠ - قصة إسلامه
- ١٩١ - مبعثه مكان النبى ﷺ ليلة الهجرة
- ١٩٢ - تضحيته فى سبيل الإسلام
- ١٩٢ - حرصه على المساواة
- ١٩٣ - انصياعه للحق
- ١٩٥ - حجاجه للخوارج وإبطال شبهتهم
- ١٩٨ - دعوته إلى العلم والعمل
- ١٩٩ - إعطاء القدوة فى عدم الاستكانة لإغواء الدنيا
- ٢٠٠ - توجيه أصحابه إلى التمسك بمعالى الأمور
- ٢٠٢ - خامسا : مصعب بن عمير ، رضى الله عنه
- ٢٠٦ - قائمة المراجع

تاريخ الدعوة

دعوة صادقة إلى النظر والتأمل في تاريخ دعوات المرسلين، بل دعوات أولى العزم من الرسل الذين تحملوا ما تنوء به الجبال الرواسي، وبذلوا أصدق الجهد، وصبروا : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف، من الآية: ٢٣٥].

وكيف لا يبذلون ما يستطيع بذله وهم المبلغون عن الله الواحد القهار... وهم الأنبياء المصطفون الأخيار ودعواتهم أعظم ما يشرف به إنسان في هذا الوجود ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت، الآية: ٢٣٣].

وهذا الكتاب يتبع مسيرة دعوات بعض رسل الله كتاريخ للدعوة إلى الله - تعالى - ليكون في ذلك عبرة وذكرى للدعاة إلى الله، يأخذون منها الدرس والطريق، ويأخذون منها الأسوة والقُدوة، ليقودوا مسيرة الإنسان عبر الزمان والمكان. ثم يعرض نماذج من الدعاة إلى الله عبراً لجهود الخلفاء الراشدين، يسير في ركبهم «مصعب بن عمير» أول سفير للإسلام.

وإننا إذ نقدم لقارئنا الكريم هذا الكتاب ندعو الله - تبارك وتعالى - أن يتفح به فتحيب له القلوب، وتفتتح له العقول؛ إنه أكرم مسئول، وأعظم مأمول.

الناشر

دار العلم والنهضة

٦٦ شارع الشيخ محمد النادر، النقطة السادسة، مدينة نصر

تليفون: ٢٧٥٨٢٥١، ٢٧٥٨٢٥٢، فاكس: ٢٧٧٢٢٦٧

To: www.al-mostafa.com